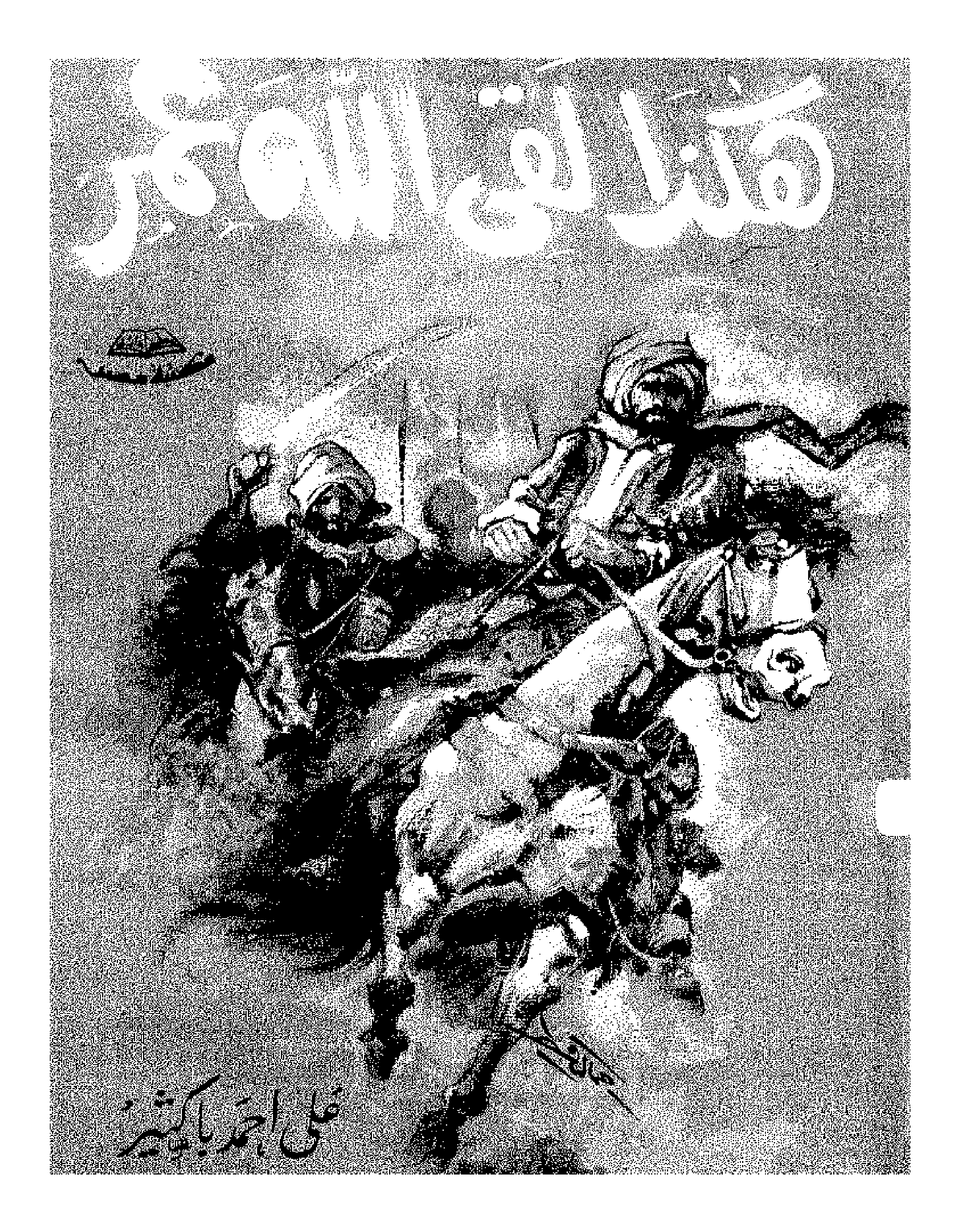

هكذا لقي الله عمر
علي أحمد باكثير

هكذا لقي الله عمر

علي أحمد باكثير

هكذا لقي الله عمر

ومسرحيات أخرى

- البيت العتيق
- المشرك الأول .
- أصحاب الغار .
- الحائط القصير .
- جار أبي حنيفة .
- إمام عظيم .

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"
سعيد جودة السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

هكذا لقى الله عمر

(عمر بن عبد العزيز على فراش مرضه وهو يجود بنفسه ، وعنده زوجته فاطمة وأخوها مسلمة بن عبد الملك)

مسلمة : ألا تذكر يا أمير المؤمنين من أسقاك الحساء ذلك اليوم ؟

عمر : لا أذكر إلا أنى شربته ، فكأنما شربت الرصاص الذائب .

فاطمة : لا أحد يسقى أمير المؤمنين غيرى وغير غُصَين خادمه .

عمر : حاشاك يا فاطمة وحاشاه ! إنه ليحبنى وأحبه .

مسلمة : لعل أحدا دفعه إلى ذلك يا أمير المؤمنين ؟

عمر : لا تقل يا مسلمة ما ليس لك به علم .

مسلمة : لقد رابنى وجوم الغلام من يومئذ .

فاطمة : أجل لم يعد غصين كما كان من قبل .

عمر : سبحان الله ! إنه ليأسى لمرض مولاه .. بحياتى عليكما لا يرين منكما أنكما تتهمانه .

مسلمة : كلا يا أمير المؤمنين ، ما أريناه شيئا من ذلك .

عمر : عسى أن يكون أحس بما يجول فى قلوبكم فركبه من جراء ذلك خوف .. على به يا فاطمة لعلى أزيل ما بقلبه ،

(تخرج فاطمة)

عمر : إنه القدر يا مسلمة .. هو الذى أسقانى ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

مسلمة : لولا كراهيتى أن أثقل عليك يا أمير المؤمنين لجادلتك .

عمر : لا تفعل ، فأبغض شىء إلىّ الجدال والمراء .

فاطمة : (**تعود**) هو ذا غصين يا أمير المؤمنين .

عمر : ادخل يا غصين .. هل لكما أن تتركانى وحدى مع غصين ؟

مسلمة : حبا وكرامة يا أمير المؤمنين . (**يخرج وفاطمة**) .

عمر : لا تخف يا غصين ، هلم ادن منى . أولا تسأل عن حالى ؟

غصين : (**فى أسى ظاهر**) كيف حالك اليوم يا أمير المؤمنين ؟

عمر : الحمد لله .. أجدنى اليوم أقرب إلى الآخرة منى إلى الدنيا .

غصين : (**يطفر الدمع من عينيه**) بأبى أنت وأمى يا أمير المؤمنين .

عمر : ويحك ! ماذا يبكيك يا غصين ؟ .

غصين : لوددت لو أن الذى بك كان بى .

عمر : إن لكل منا أجلا لا يعدوه وإنى لقادم على رب كريم ، فجدير بمن يحبنى ألا يشفق على من خير . أولا تحبنى أنت يا غصين ؟

غصين : بلى والله يا أمير المؤمنين .

عمر : فهل لك أن تحلنى من كل إساءة ربما أسأتها إليك دون أن أعلم ؟

غصين : (**ينشج باكيا**) حنانيك يا أمير المؤمنين . أنا المسىء إليك وإنك المحسن المتفضل . تبا لى ! تبا لى أبد الدهر !

عمر : مهلا ، لا ينبغى أن تدعو على نفسك .

غصين : اقتلنى يا أمير المؤمنين ، مرهم بقتلى فإنى أستحق القتل .

عمر : صه ! اخفض صوتك لا يسمعوك .

غصين : لا أبالى يا أمير المؤمنين إذا أنت غفرت لى كبير جرمى .

عمر : اخفض صوتك .. اخفضه من أجلى .

غصين : (**بصوت خافض**) اغفر لى يا أمير المؤمنين .. اغفر لى .

عمر : الله وحده ولى المغفرة ، ولكنى مُسامِحُك ومُحلُّك من حقى إذا أنت صدقتنى الحديث .

غصين : إى والله يا أمير المؤمنين لأصدقنك القول ولا أخفى عنك شيئا .

عمر : اخفض صوتك .

غصين : (**يخفض صوته**) أنا الشقى الأبعد قد دسست لك السم فى ذلك الحساء .

عمر : قد علمت يا غصين يوم أسقيته لى .

غصين : علمت ذلك فلم تكلمنى إلا اليوم ؟

عمر : وما كنت لأكلمك لولا محبتى لك وإشفاق عليك من عذاب الله يوم القيامة .

غصين : وما ينجينى من ذلك يا أمير المؤمنين وقد استوجبته بما فعلت ؟

عمر : رجوت يا غصين أن تندم وتستغفره عسى أن يتوب الله عليك .

غصين : ولهذا كلمتنى ؟

عمر : نعم . خبرنى ما حملك على ما فعلت ؟

غصين : الطمع يا أمير المؤمنين .

عمر : أعطيت شيئا على ذلك ؟

غصين : نعم . لأخبرنك بالذى أعطانى .

عمر : كلا لا تفعل . ولكن خبرنى كم أعطاك ؟

غصين : ألف دينار يا أمير المؤمنين .

عمر : وقبضتها ؟

غصين : لا يا أمير المؤمنين حتى .. حتى ..

عمر : حتى أموت ؟

غصين : أجل واشقوتاه !

عمر : ويحك إن مت فلن يعطوها لك ، وعسى أن يقتلوك لكيلا تفشى سرهم . فهل لك يا غصين فى خير من ذلك عسى أن تنجو من عذاب الدنيا وسوء عذاب الآخرة ؟

غصين : كيف يا أمير المؤمنين ؟ أرشدنى .

عمر : تمضى الساعة إلى صاحبك فتقبضها منه ثم تعود بها حالا إلىّ .

غصين : ما إخاله يرضى يا أمير المؤمنين .

عمر : قل له إنك ستخبرنى باسمه إن لم يفعل ، فإنه سيخاف ويعطيك .. انطلق الساعة .

غصين : سمعا يا أمير المؤمنين ، يا أكرم الناس . (**يهم بالخروج**)

عمر : رويدك يا غصين ، امسح هذا الدمع من عينيك . وإياك أن

تخبر أحدا فهذا سر بيني وبينك .

غصين : (**يمسح الدمع عن عينيه**) واشقوتاه .

عمر : إذا سألك أحد فقل إني بعثتك في مهمة . انطلق الآن .

(**يخرج غصين**)

عمر : (**يتمتم**) اللهم اغفر لعبدك غصين !

(**يدخل مسلمة وفاطمة**)

مسلمة : بعثت الغلام في مهمة يا أمير المؤمنين ؟

عمر : نعم . ذكرت وديعة عند صاحب لي فبعثته في طلبها منه .

فاطمة : وديعة ؟

عمر : هلمي يا فاطمة فقد آن لي أن أفضي إليك بشيء طالما جال في صدري .

مسلمة : (**يهم بالخروج**) هل لي يا أمير المؤمنين أن أدعك وزوجك ؟

عمر : بل تبقى يا أخي ، إنها أختك ومن الخير أن تشهد . أصغي إلي يا فاطمة .

فاطمة : نفسي فداؤك يا أمير المؤمنين .

عمر : أتذكرين حليك وجواهرك التي أودعناها في بيت المال ؟

فاطمة : قد طابت نفسي عنها يا أمير المؤمنين ، فما بالها ؟

عمر : إنها لم تزل بحالها .. وعليها اسمك لم يستهلكها بيت المال بعد ، وإني لأعلم أن الذي يأتي بعدي لن يصرفها في حقها .. فإن تكن نفسك فيها فأنت بها أولى .

مسلمة : أجل هي حقك يا فاطمة وأنت بها أولى .

فاطمة : إذا أذنت يا أمير المؤمنين فإني سآخذها وأتصدق بها على الأيامى واليتامى .

عمر : أحسنت يا فاطمة . أما والله ليعزيني عن باطل الدنيا أن من أهلي وولدى من أرجو أن يشفع لى يوم القيامة بصلاحه وتقواه .

فاطمة : بل أنت شفيعنا جميعا يا أبا عبد الملك .

عمر : كلا يا فاطمة . لأنت فى زهدك فيما تهفو إليه قلوب النساء من الزينة والمتاع أتقى لله مني . وكذلك ابني عبد الملك — يرحمه الله — إذ اتقى الله وهو فى ريعان صباه .

مسلمة : والله ما صلح هؤلاء يا أمير المؤمنين إلا بصلاحك .

عمر : (**يعرض عن مسلمة إلى فاطمة**) ولى حاجة أخرى يا فاطمة .

فاطمة : ما هي يا أمير المؤمنين ؟

عمر : إن الخلافة قد شغلتني زمنا عنك وعن القيام بحقك ، فهل لك أن تجعليني فى حل ؟

فاطمة : (تبكي) ويحك يا أبا عبد الملك ، أفى هذا تكلمني ؟ إنى لأرجو بذلك ثواب الله والدار الآخرة . ولئن شغلت عنى بأمر المسلمين لطالما عُنيت بى يا عمر فى أيامنا الأول !

عمر : أجل وددت لو بقينا يا فاطمة كما كنا و لم يطوقني بالخلافة أخوك سليمان .

مسلمة : يا أمير المؤمنين والله ما أعرف لأخي سليمان من عمل أرجى له عند الله من ذلك . لقد والله أرضيت الله وأرضيت المسلمين عنا ، وبيضت وجوهنا نحن آل مروان .

عمر : ويحك يا مسلمة إنما ذلك يوم القيامة يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، وما أرى آل مروان إلا ساخطين على .

مسلمة : لئن ضاقوا ببعض شدتك عليهم ، إنهم بعد ليفخرون بك .

عمر : زهو الجاهلية الجهلاء ، ويلهم ! أما والله لأكونن حجة عليهم يوم القيامة .

مسلمة : صدقت إن شئت يا أمير المؤمنين اقتصصت لك من غريمك فيهم ولو كان ..

عمر : على رسلك يا مسلمة لا تداورنى . إنه لا غريم لى فيهم ولا فى غيرهم . أم تريد إغضابى ؟

مسلمة : معاذ الله يا أمير المؤمنين ، ما أبتغى غير رضاك .

فاطمة : سامح أخى يا أمير المؤمنين فإنه ليحبك .

عمر : وإنى لأحبه يا فاطمة ، وأقدر جهاده فى سبيل الله وحسن بلائه .

(يقرع غصين الباب مستأذنا)

مسلمة : هذا غصين يا أمير المؤمنين .

عمر : ادخل يا غصين .

(يدخل غصين حاملا صرة كبيرة)

عمر : أتيت بالوديعة يا غصين ؟

غصين : نعم يا أمير المؤمنين .

عمر : أشتهى أن أخلو به مرة أخرى ، فهل لكما .. ؟

مسلمة : حبا يا أمير المؤمنين . (**يخرج وفاطمة**) .

عمر : هلم ادن مني واخفض صوتك . أهذه الألف دينار ؟

غصين : نعم يا أمير المؤمنين .

عمر : وددت يا غصين لو أدع هذه الدنانير لك لولا خشيتى أن تلتهب عليك نارا يوم القيامة ، فهل لك فى خير من ذلك .. أن أعيدها إلى بيت مال المسلمين ؟

غصين : افعل ما ترى يا أمير المؤمنين . إنى والله ما أريدها وما فى الدنيا أبغض إلى نفسى منها .

عمر : بوركت يا غصين ! ما أرى إلا أن الله قد شاء أن يتوب عليك . امض الآن فأنت حر لوجه الله .

غصين : (**يبكى**) أوتعتقنى يا أمير المؤمنين ؟

عمر : نعم .. اذهب حيث شئت ، حيث لا يعرفك أحد .

غصين : ألا أبقى يا أمير المؤمنين فى جوارك وخدمتك ؟

عمر : ويحك يا غصين ما تخدم من رجل مُحتَضر ، إن أمسى فلن يصبح ، وإن أصبح فلن يمسى .

غصين : بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين .

عمر : انطلق ويلك ولا تقم بين هؤلاء فيقتلوك . (**يدخل مسلمة**).

مسلمة : معذرة يا أمير المؤمنين . لا ينبغي أن ينجو هذا الغلام من عقوبة ما اجترم . (**يأخذ بزند الغلام**) .

عمر : (**غاضبا**) ويلك يا ابن عبد الملك ، أوقد تسمعت إلى حديثنا ؟

مسلمة : لا والذى نفسى بيده يا أمير المؤمنين ، ولكن طرق سمعنا صوتك وصوته .

فاطمة : (**تدخل**) أجل يا أمير المؤمنين .. لقد صدق مسلمة .

عمر : فلتكتما إذن ما سمعتما ، فإنى قد سامحته وعفوت عنه . خل عنه يا مسلمة فقد عتقته لوجه الله .

مسلمة : لا والله يا أمير المؤمنين ، لا يكون جزاء العبد الغادر أن يعتق لوجه الله . لا بد من أخذه بجريرته .

عمر : (**فى لين**) ويحك يا مسلمة ! إن أخذت الغلام بجريرته ليحقن عليك أن تأخذ الآخرين بجريرتهم . وإذن لتكونن فى أهلك فتنة لا يعلم عاقبتها إلا الله .

مسلمة : لا بأس فليكن وقودها من يكون !

عمر : (**متوسلا**) أنشدك الله يا ابن عمى أن لا تعصى أمرى فى آخر يوم لى فى هذه الحياة الدنيا . كلمى أخاك يا فاطمة .

فاطمة : أطع أمير المؤمنين يا مسلمة فإنه لينظر بنور الله . وما يكون لنا أن نعصاه وهو على هذه الحال .

مسلمة : (**يرسل الغلام من قبضته**) لأمير المؤمنين منا ما يحب .

فاطمة : حول وجهك عنا يا غصين .. اذهب لا بارك الله فيك .

عمر : بل غفر الله له وبارك فيه . امض يا غصين واستغفر الله لى ولك .

(ينشج غصين هنيهة ثم يخرج)

عمر : (**يئن متوجعا**) وارأساه ! (**يتهاوى على فراشه مغشيا عليه**)

فاطمة : وى ! قد غشى عليه يا مسلمة !

مسلمة : تجلدى يا أختاه . إنما هى غشية ويفيق .

عمر : (**يفتح عينيه كالمذعور ويهم أن يهب فلا يستطيع**) مسلمة ! مسلمة !

مسلمة : لبيك يا أمير المؤمنين .

عمر : أين الصرة التى جاء بها غصين ؟ .

مسلمة : هى ذى يا أمير المؤمنين بين يديك .

عمر : إنها ليست لى يا مسلمة ، إنها لبيت المال ، أوصيك أن تحملها إلى بيت المال .

مسلمة : سأفعل يا أمير المؤمنين .

عمر : جزاك الله عنى خيرا يا ابن عمى . وأنت يا فاطمة ..

فاطمة : (**متجلدة**) نعم يا أمير المؤمنين .

عمر : هل لك أن تحلينى من كل حق لك على ؟

فاطمة : (**تبكى**) قد فعلت يا أمير المؤمنين ؟

عمر : جزاك الله عنى خيرا من زوج صالحة ! أستودعك الله

يا فاطمة . (**يشخص ببصره إلى أعلى**) اللهم رضني بقضائك ، وبارك فى قدرك ، حتى لا أحب لما عجلت تأخيرا ولا لما أخرت تعجيلا . (**يتهلل وجهه بالبشر فجأة**) مرحبا .. مرحبا بكرام طيبين !

فاطمة : بمن يا أمير المؤمنين ؟

عمر : بهذه الوجوه التى ليست بوجوه إنس ولا جان .

فاطمة : نفسى فداؤك يا عمر !

عمر : (**كأنه لم يع شيئا مما حوله**) تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . (**يردد مسلمة وفاطمة الشهادين فى رقة وخشوع**) .

عمر : (**يصحو صحوة**) غصين ! أين غصين ؟

مسلمة : (**متجلدا**) قد مضى لسبيله يا أمير المؤمنين .

عمر : (**بصوت ضعيف**) الحمد لله . (**يتحشرج**) اللهم اغفر .. لعبدك .. غصين .. واغفر .. لعبدك .. عمر .. مع عبدك .. غصين .

(**يسلم الروح**)

(**ستار**)

البيت العتيق

(المنظر: حول البيت العتيق وقد أوشك أن يتم بناؤه . إبراهيم وإسماعيل يعملان فى ذلك مجتهدين) .

إبراهيم : ما بالك صامتا اليوم يا إسماعيل ؟

إسماعيل : إنى أردد فى سرى ما سمعته منك : « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » .

إبراهيم : قد سمع الله لنا يا بنى وهو السميع المجيب — ولكن هلم نتحدث أو قد مللت حديثى يا إسماعيل ؟

إسماعيل : معاذ الله يا أبى ، ولكنا قد أوشكنا أن نفرغ من عملنا هذا . فلو صبرنا قليلا عن الحديث حتى لا يشغلنا عن إتمامه اليوم .

إبراهيم : بل الحديث أعون على احتمال الجهد دون أن نشعر بالجهد . أوَلا تعرف المثل الذى يقال فى ذلك ؟

إسماعيل : بلى يا أبت .. يقولون هنا . احملنى وأحملك !

إبراهيم : قول بديع فى معنى المثل الذى نقوله بالشام ، بيد أن هذا أخف وأروع .

إسماعيل : لوددت يا أبى لو أحسن لغتك كما تحسنها أنت ، فينطلق بها

لسانى كما ينطق بلغة أحمائى هؤلاء .

إبراهيم : بل يا ليتنى أحسن لغتكم هذه فأكلمك بها— فهى أشرف وأكرم .

إسماعيل : أشرف وأكرم .. كيف ؟

إبراهيم : بهذه اللغة يا إسماعيل سينزل الله ذلك الكتاب الكريم على الرسول العظيم من ذريتك ، فتكون لسان المهتدين به فى مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة .

إسماعيل : (**فرحا**) إذن فلو أقمت عندنا يا أبى فتتعلمها !

إبراهيم : وأنى لى ذلك يا بنى ؟ لقد أمرت بأن تكون هذه هجرة لله ، فلو أقمت معك ما كانت كذلك ..ويحك يا إسماعيل لو كان ذلك لى لقد كانت هاجر أمك أحرى منك بأن أقيم معها . (**تخالط صوته رقة**) وألا أدعها تموت هنا وحدها دون أن ترانى .

إسماعيل : ويحك يا أبى ! لشد ما أطعت ربك وصبرت .

إبراهيم : (**يتجلد**) ما أنا إلا عبد الله يا إسماعيل أؤمر فأطيع .. إن الله قد اختارك أنت أبا لتلك الأمة العظيمة و لم يخترنى .

إسماعيل : لكنك أبى ، فأنت إذن أبوها .

إبراهيم : صدقت ! ولكن الله قد شاء أن يجعلنى أبا الملة كلها : ملة التوحيد والإسلام مهما تختلف أنسابها وألوانها وديارها ، و يجعلنى أبا لأمة دون أمة .

إسماعيل : بخ بخ لك يا خليل الرحمن !

(تقبل امرأة إسماعيل)

إبراهيم : مرحبا مرحبا بزوج البعل الكريم ، وأم الشعب العظيم .

هى : الفضل فضلك يا عماه . أنا هى العتبة وأنت الذى بتثبيتها أوصيت .

إبراهيم : بل الفضل فضلك يا بنتاه .. إذ وجدتك شكورا صبورا فكنت جديرة أن تلدى ذلك الشعب .

إسماعيل : **(كأنه لا يريد أن تشغلهما امرأته عن عملهما)** هل من حاجة أقضيها لك ؟

هى : لا حاجة إلا أن إخوتى وأبناء عمومتى هؤلاء ما زالوا يلحون على لتأذنا لهم فيعينوكما على رفع هذه البنية .

إسماعيل : لقد قلنا لهم من أول يوم أن هذا أمر الله سبحانه وتعالى ننفذه كما أمر .

إبراهيم : أجل ، فاعتذرى لهم واشكريهم فكأن قد أعانونا محمودين .

هى : لم يشاءوا أن يقتنعوا بذلك ، وظلوا يظنون أنكما ما امتنعتما إلا كراهية أن تحملاهم رهقا — وإنهم لفتيان أشداء وإنهم ليحبون إسماعيل وأباه ، ويحز فى صدورهم أن يرفض الضيف الكريم منهم التكرمة .

إسماعيل : فقولى لهم إن البنية قد أوشكت أن تتم .. ألا ترين ؟

هى : ذلك أجرى أن تأذنا لهم اليوم فتطيب نفوسهم .

إسماعيل : ماذا ترى يا أبي ؟

إبراهيم : لا أدرى والله — نريد أن نطيع أمر ربنا ولا نحب أن نسيء إلى قوم كرام محسنين .

إسماعيل : أمر ربنا إذن أجدر أن نرعاه .. ارجعى إليهم فقولى .

إبراهيم : بل رويدك ! حدثيهم بحديث الفداء لعلهم يقتنعون بأن أمر الله لا هوادة فيه .. ألم تحدثها بذلك يا إسماعيل ؟

هي : بلى يا عماه .. إذ رأيت فى المنام أنك تذبح ابنك فعزمت أن تنفذ أمر الله ، لولا أن فداه الله بذبيح عظيم .

إبراهيم : أجل أجل هو ذاك .

هي : آه .. لولا ذلك الفداء ما فزنا بك يا إسماعيل .

إبراهيم : فلتحدثى به فتيان قومك ، ولتقولى لهم إن هذا الأمر مثل ذاك .

هي : (**فرحة**) الآن يا سيدى أستطيع أن أقنعهم .

إسماعيل : قولى لهم : حسبنا فضلا منهم أنهم يعطوننا من صيدهم منذ شُغِلت أنا عن الصيد .

هي : (**فى دلال**) لا يا إسماعيل .. هذا وحده غير مقنـــع .. سأمضى الساعة لإقناعهم ثم أعود إليكما بالغداء .

إبراهيم : أخرى غداءنا حتى نفرغ من عملنا ، فما بقى منه إلا قليل .

هي : الضيف هو الآمر يا إسماعيل .

إبراهيم : كلا ما أنا بضيف يا بنيتى ، ولكنى جعت وتعبت .

هى : إذن فقد أمرت . (**تخرج**) .

إبراهيم : (**معجبا**) ما أذكاها وأنجبها ! إن فيها لمشابه من هاجر .

إسماعيل : (**يضحك**) لها الله .. لقد شغلتنا عن العمل .

إبراهيم : (**يقف عن العمل**) دعنا نسترح قليلا يا بنى .

إسماعيل : أنا ما جعت بعد يا أبى ولا تعبت .. ما بقى غير هذا الصف الواحد من المد ، ثم نستريح .

إبراهيم : ذلك أحرى أن نستريح الآن .

إسماعيل : سأقرب بعض الحجارة ريثما تعود زوجتى بالغداء .

إبراهيم : أتعصى أباك يا إسماعيل ؟

إسماعيل : (**يلقى كل ما بيده**) معاذ الله يا خليل الله .. إنى سامع ومطيع .

إبراهيم : هلم نجلس فوق تلك الصخرة العالية .

(يرقيان الصخرة ثم يجلسان)

إبراهيم : (**ينظر إلى خيام الجرهميين**) ما شاء الله ! هذه أخبية أحمائك من جرهم . الحمد لله إذ استجاب دعوتى فجعل أفئدة من الناس تهوى إليكم .

إسماعيل : أجل يا أبت .. كل يوم يطنب بيننا أهل خباء جديد .

إبراهيم : بارك الله فى زمزم ، وبارك على صاحبتها الصديقة المصرية أم إسماعيل ، وأم السيد المختار من ولد إسماعيل .

إسماعيل : (**تندى عيناه بالدمع**) ليتها يا أبى تشهد هذا اليوم .

إبراهيم : (**يتجلد**) ما عند الله خير لها وأبقى يا بنى . (**يتنهد**) آه .. ما أسرع كرور السنين ! .. لكأنما كان ذلك أمس إذ بلغت بكما هذا المكان فأنزلتكما به ـــ وأنت بعد رضيـــع لم تفطم ـــ وليس به يومئذ ماء ولا أنيس ، وما معكما غير جراب تمر وسقاء ماء .. فلما أردت المضى صاحت بى أمك : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء ؟ فوقفت حزينا لا أحير جوابا . فلما رأت ذلك منى قالت : آلله أمرك بهذا ؟ قلت نعم . قالت : إذن لا يضيعنا.فامض حيث شئت . فانطلقت يا بنى أريها أنى جلد لئلا يحزنها حزنى ، حتى إذا كنت عند اتلك الثنية حيث لا ترانى عينها ، استقبلت هذا البيت بوجهى ودعوت الله لها ولك تلك الدعوة .

إسماعيل : هى حدثتنى أنها كانت يومئذ تخشى علىّ وعلى نفسها سباع الوحش وسباع الإنس . فلما قلت أنت لها إنه أمر الله ، سكنت واطمأنت .

إبراهيم : أجل يا بنى .. الله أعلم حيث اختار ..لو لامرأة أخرى قبل ذلك يومئذ ما آمنت ولا اطمأنت . (**يتنهد**) إن لله يا بنى لحكمة فى كل شىء .. ألهم سارة خالتك أن تغار منك ومن أمك ليكون ذلك سببا لعمارة بيته هذا العتيق ، وليجعل لى ولك شرف بنائه وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود .

(تعود امرأة إسماعيل تحمل مكتلا وسقاء)

هى : ألا تنزلان لغدائكما أم أصعد إليكما به ؟

إبراهيم : انزل يا بنى فخذه منها .

(ينزل إسماعيل فيأخذ المكتل والسقاء منها ويصعد)

إبراهيم : ماذا صنع الفتيان يا بنتاه .. اقتنعوا ؟

هى : نعم يا عماه وطابت نفوسهم .

إبراهيم : الحمد لله .

هى : إذا شئتما مزيدا من هذا الشواء فعندنا المزيد .

إبراهيم : بارك الله فيك ..

هى : (**باسمة**) .. يا أم الشعب العظيم ! (**تنصرف**) .

(يضحك إبراهيم وإسماعيل) .

إبراهيم : بسم الله الرحمن الرحيم . (**يأخذ فى الأكل**)

إسماعيل : بسم الله الرحمن الرحيم . (**يأكل فى غير نية كمن شغل فكره بشىء**) .

إبراهيم : ما خطبك يا بنى ؟ لم يعجبك هذا الشواء الطيب ؟

إسماعيل : بلى يا أبت إنه لأفضل ما عندنا من الطعام .

إبراهيم : فمالى أراك لا تأكل بنية مثلى ؟ أى شىء يشغل بالك ؟

إسماعيل : حتى تفرغ من طعامك كيلا أشغلك عنه .

إبراهيم : بل حدثنى الآن .. إن الحديث على الطعام لمستحب .

إسماعيل : سمعتك تذكر سارة خالتى ، وحكمة الله فى مهاجرتك بى

إبراهيم : أجل ، هنا انقطع حديثى معك آنفا .

إسماعيل : فهل لى أن أستزيدك علما ؟

إبراهيم : افعل يا بنى الحبيب — سلنى ما تشاء .

إسماعيل : فيم اختار الله هذا الوادى القفر ليكون دار هجرتنا أنا وأمى ؟

إبراهيم : ويحك يا بنى .. لمكان بيته المحرم هذا .

إسماعيل : وفيم جعل بيته المحرم هنا فى هذا المكان الجديب ؟

إبراهيم : ويحك ! أضقت ذرعا بالعيش هنا يا إسماعيل ؟

إسماعيل : كلا يا أبى .. إنى لأحب هذا الربع ولا أعدل به جنات الأرض .. وحسبى أن أمى فيه عاشت وبه دفنت ، وأنها رأت من الآيات يوم مقدمها ما جعلها تنعم بالا وتقر به عينا .

إبراهيم : أجل إنها لآيات بينات أكرمها الله بها ثم فضلها على نساء العالمين ، إذ جعل آثارها ومواطىء أقدامها مناسك يؤديها حجاج بيته إلى يوم القيامة .

إسماعيل : ولكنى أشتهى بعد يا أبى أن أعرف الحكمة فى اختيار هذه البقعة الجدباء من دون بقاع الأرض .

إبراهيم : ويحك يا بنى : ألم أخبرك غير مرة أن الله قد بشرنى أن يبعث هنا رسولا عظيما من ولدك يكون خاتما لرسله ، إذ يضع ميزان الحق على الأرض فلا يرتفع عنها حتى تقوم الساعة ؟

إسماعيل : بلى يا أبى ، ولكن فيم هذا المكان الجدب لذلك الرسول

العظيم ؟

إبراهيم : أى بنى إن الله لم يوح إلى بشىء فى ذلك .. ولكن لعله جلت حكمته قد قضى فى سابق علمه أن يصون هذه البذرة الطيبة هنا ، فى معزل عن عواصم المشركين وملاحم الجبارين حتى يأتى ذلك اليوم الموعود .

إسماعيل : هذا حسن يا أبى ، ولكن إذا ظهر ذلك الرسول العظيم فى هذا الموضع القفر ، فلن يكون المهتدون به إلا قلة من الناس .

إبراهيم : مهلا يا بنى لقد نبهتنى بسؤالك هذا إلى حكمة لله أخرى ، والله أعلم وأحكم .

إسماعيل : ما هى يا أبى ؟

إبراهيم : كيما يتيح الله لتلك الأمة التى يبعث بين ظهرانيها ذلك الرسول فتهتدى به ، أن توفض من هذه البقعة فتنساح شرقا وغربا إلى حيث تنشر رسالته ودينه فى منابت الزرع والضرع ، ومساق الأنهار ومساقط الأمطار من ممالك الأرض وأممها ، جريا فى ذلك على سنته التى لا تتبدل ، فيكون لتلك الأمة ملك العالم وخير الدنيا والآخرة .

إسماعيل : (يتهلل وجهه بشرا) جزاك الله خيرا يا أبى .. الآن اطمأن قلبى .

إبراهيم : (يبتسم) فهيا إذن وآكلنى — فإنى لا أستطيب الأكل وحدى .

إسماعيل : حبا يا خليل الرحمن وكرامة ! (**يأكل بنفس طيبة**) عسى ألا تؤاخذنى فيما ألححت عليك وأحفيت السؤال .

إبراهيم : كلا لقد سرنى هذا منك .. أنا أيضا كنت فى شبابى طلعة مثلك .. حتى لقد بلغ بى ذلك أن سألت رب العزة أن يرينى كيف يحيى الموتى .. فقال لى : « أو لم تؤمن ؟ » قلت : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى .

إسماعيل : فأراك ربك آية الطير الأربعة .

إبراهيم : (**متهللا**) سمعتها يا بنى ؟

إسماعيل : من لسان أمى .

إبراهيم : أجل لقد كانت حافظة واعية .

إسماعيل : كُل يا أبت .. كُل .

إبراهيم : الحمد لله رب العالمين .. أتمم أنت غداءك .

إسماعيل : الحمد لله رب العالمين .

إبراهيم : (**ينهض**) حىّ الآن على العمل .

(ينزلان من الصخرة ويستأنفان عملهما فى بناء البيت)

إبراهيم : ناولنى هذا بيدك .

إسماعيل : بل دعنى يا أبى أرفعه بنفسى ، إنه حجر ثقيل .

إبراهيم : (**مبتسما**) هذا دأبك معى يا بنى .. أوَ تريد أن تستأثر بالثواب من دونى ؟

إسماعيل : يا أبت إن الثواب كله لك .. فما أنا إلا ابنك وعملك الصالح

إن شاء الله .

إبراهيم : أجل ، ولكنا أمرنا أن نبنى البيت معا ، لا أن تبنيه أنت وحدك .

إسماعيل : يا أبتاه لقد أمرك الله أن تستعين بى ، وهو سبحانه يعلم أنك شيخ كبير وأنى شاب جلد .

إبراهيم : (يضحك) صدقت يا بنى .. والله ما رأت عينى فى بلاد الشام ولا أرض الكلدان فتى أجلد ولا أمتن منك .. لله هذه الأرض التى ربتك فشدت لحمك وصلبت عظمك (ثم فى رقة) ولله در ابنة النيل تلك التى أرضعتك !

إسماعيل : (فرحا) انظر يا أبى لقد فرغنا من بناء البيت ونحن لا نشعر .

إبراهيم : الحمد لله ما بقى علينا إلا أن نختمه بهذا العلم .

إسماعيل : ما هذا الحجر الأسود الذى جئت به ؟

إبراهيم : نثبته فى هذا الركن .. ليكون للناس علما يبتدئون منه الطواف .

(يساعده إسماعيل فى تثبيت الحجر الأسود)

إبراهيم : (يستلمه ويقبله) طوبى لك من حجر ! ليستلمنك يوما حبيب الرحمن وليقبلنك .

إسماعيل : حبيب الرحمن ؟

إبراهيم : ابنك المختار يا إسماعيل .. هذا من ألقابه .. استلمه وضع شفتيك حيث يضع شفتيه .

إسماعيل : (**يستلم الحجر ويقبله**) ابنى المختار .. حبيب الرحمن .

(يسمع خفق لطيف بين السماء والأرض)

إبراهيم : سبوح قدوس !

إسماعيل : يا أبت .. ما هذا ؟

إبراهيم : هذا الروح الأمين يا بنى .

إسماعيل : (**متمتما**) جبريل ؟

جبريل : (**يسمع صوته**) يا إبراهيم .. رب العزة أمرنى أن أقرأ عليك السلام .

إبراهيم : (**مبتهلا**) اللهم إنك أنت السلام ومنك السلام — تباركت ربنا وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام .

جبريل : وأن أبلغك أنه قد رضى عنك وعن ابنك إسماعيل ، فيما بنيتما وطهرتما من بيته هذا للطائفين والعاكفين والركع السجود .

إبراهيم : لك الحمد يا رب الحمد ، ما كنا لنرفع قواعده وحدنا لولا عونك وخفى قدرتك .

جبريل : وقد أذن لك أن تدعوه ما تشاء ليستجيب لك .

إبراهيم : (**يرفع يديه مبتهلا**) رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ..

جبريل : ومن كفر ؟

إبراهيم : ومن كفر ؟

جبريل : يقول ربك رب العزة : ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى

عذاب النار وبئس المصير .. أتمم دعاءك يا إبراهيم .

إبراهيم : ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنـا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم .

إسماعيل : آمين .

إبراهيم : آمين يارب العالمين .

جبريل : إن ربك يأمرك أن تؤذن بالحج إلى بيته فى الخلق أجمعين .

إبراهيم : أى جبريل أى خلق هنا ؟ إنما هى أبيات قلائل .

جبريل : أذن فى الناس عامة .. فى البشر كافة .. فى الخلائق أجمع .

إبراهيم : وما يبلغ صوتى يا جبريل ؟

جبريل : ما عليك إلا أن تؤذن وعليه عز وجل البلاغ . فليسمعن صوتك جميع ما فى أصلاب الرجال وأرحام النساء من يومك هذا إلى يوم القيامة .

إبراهيم : سبوح قدوس !

جبريل : فليلبين نداءك كل من آمن ممن كتب الله له حج بيته ، مهما تكن داره فى المشرق أو المغرب إلى يوم القيامة ـــ وليعجزن عن التلبية كل من لم يكتب الله له الحج وإن يكن مقيما فى هذا الوادى على غلوة سهم من البيت العتيق .

إبراهيم :
إسماعيل : سبوح قدوس !

جبريل : ارق ذلك الشرف يا إبراهيم فأذن أذانك منه .

إبراهيم : أعنى يا بنى لأرقى هذا الشرف . (**يعينه إسماعيل**)

جبريل : أذن .. الآن .

إبراهيم : (**بأعلى صوته**) أيها الناس .. إن الله تبارك وتعالى قد كتب عليكم الحج إلى هذا البيت العتيق .

(تتجاوب الأصوات مدوية من قريب وبعيد بكلمات شتى ولهجات متباينة)

إسماعيل : يا أبت ما هذا الدوى ؟

إبراهيم : ما هذا يا جبريل ؟ أهذه هى ..

جبريل : أصوات أجيال البشر التى كتب الله لها حج بيته العتيق .

إسماعيل : وماذا تقول يا أبت، تلك الأصوات ؟

إبراهيم : ماذا تقول الأصوات يا جبريل ؟

جبريل : تقول بشتى لغاتها ومختلف ألسنتها فى المشارق والمغارب :
« لبيك لبيك .. »

ستار

المشرك الأول

١

(فى بيت جابر بن سهل الخزاعى بمكة)

جابر : (**يستقبل مسعود بن واثلة الجرهمى**) مرحبا بك يا مسعود ، متى قدمت البلدة ؟

مسعود : الساعة يا جابر .

جابر : كأنك آثرتنى بالنزول عندى ؟

مسعود : نعم .

جابر : بوركت من صديق كريم : لقد كنت والله حريا أن تنزل عند صديقك الآخر الذى أصبح علما فى الناس ، بل أصبح إلٰها يعبد !

مسعود : عمرو بن لحى ؟

جابر : أجل فتجد عنده من التكرمة ما لا تجد عند فقير مثلى .

مسعود : فمن أجله قدمت من بادية قومى .

جابر : لتدخل فيما دخل الناس من دينه ؟

مسعود : معاذ الله يا جابر أن أشرك بربى وأنسلخ من دين إسماعيل وإبراهيم .

جابر : غدا يمتد هذا الشرك إلى ديار قومك فيهديهم عمرو وثنا من أوثانه يعبدونه هناك .

مسعود : أجل هذا والله ما أشفق منه . لا ينبغى لجرهم أن تكفر بدين إسماعيل .

جابر : ولا لخزاعة يا مسعود ، ولكنها فتنة ابتلانا الله بها على يد هذا الفاسق الفاجر .

مسعود : وكيف سكتم أنتم على ذلك ؟ كيف سكت أنت يا جابر ؟

جابر : لقد قاومته فى أول الأمر وحاولت أن أثنى الناس عنه ولكنى لم أفلح ، فلقد هموا أن يثبوا بى ، فسكت يا مسعود على مضض حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

مسعود : ليت شعرى كيف استطاع عمرو أن يصنع هذا الذى صنع ؟

جابر : إن لذلك حديثا يطول يا مسعود ، وما إخال سماعه يعنيك بعد أن كان ما كان .

مسعود : بلى إن ذلك ليعنينى ، فبالله عليك إلا ما حدثتنى به .

جابر : أخشى أن تكذب حديثى كما كذبه غيرك .

مسعود : ويحك يا جابر كيف يكون ذلك ؟

جابر : لا تعجب ، فإنى لأجدنى أحيانا أوشك أن أرتاب فى صواب ما اخترت لنفسى من الامتناع عن الدخول فيما دخل فيه الناس من حولى .

مسعود : معاذ الله يا جابر ومعاذ دينك وتقواك ، هلم حدثنى كيف بدأ هذا الذى أحدثه عمرو بن لحى ؟

جابر : لعلك تذكر ما كان يكنه عمرو لهانىء ابن عمه من الحسد والغيرة ، أن كان هانىء وجيها فى قومه لغناه وجاهه وهو فقير .

مسعود : أجل أذكر بعض ذلك .

جابر : فآلى عمرو على نفسه ليرحلن فى طلب الغنى ، وليعودن بالوفر العريض فليرتدين حلة من الدمقس يجر ذيلها فى البطحاء ، فتتحدث عنها عواتق مكة فى خدورها .

مسعود : فارتحل إلى الشام .

جابر : نعم ، فانقطعت عنا أخباره بضع سنين ، وكانت أختى سعدى عنده فوجدت عليه واستيأست من معاده فلحقت بى . ثم ما راعنا ذات ليلة إلا أن طرق بابنا طارق فإذا هو عمرو ، فأخذ سعدى معه إلى داره . وأصبح الصباح وخرجت لأزوره فإذا المدينة كلها تتحدث عن إله هبط من السماء .. هبط واستقر فى فناء دار عمرو بن لحى ..

مسعود : هُبل ؟

جابر : نعم ، فلقيت عمرا و كلمته فى هذا الحديث الذى أحدثه فقال لى : إن كنت فى شك من أمره فسل أختك فقد شهدته حين هبط من السماء .

مسعود : فماذا قالت أختك ؟

جابر : أيدت صدق مقالته أول الأمر حتى غضبت منها فقاطعتها . وطفق أتباع عمرو يكثرون وهو يحدث لهم كل يوم بدعة من بدعه فيتخذونها شرعة . وتناقلوا بينهم أن هبل يشفى مرضاهم ويقضى حوائجهم ويهب الولد لنسائهم العقم ، فصاروا يقدمون له النذور والقرابين ، فما لبث عمرو أن أثرى و كثر فى يده المال فكان ينفق منه بغير حساب ، ويطعم ويكسو ويقرى الضيف والحجيج ، فعلا صيته وبلغ الذى بلغ .

مسعود : وهذا الوثن قدم به عمرو من الشام ؟

جابر : نعم قدم به على راحلته ، ولكنه زعم للناس أن إلٰهه هذا كان يسير فى أعلى السحاب ، وما زال يساير عمرا حتى بلغا مكة فهبط حيث هبط فى تلك الليلة التى قدم فيها عمرو .

مسعود : وكيف علمت ذلك ؟

جابر : حدثتنى بذلك أختى سعدى آخر الأمر لما تغير ما بينه وبينها فنشزت عنه ولحقت بى ، وما لبثت أن قضت نحبها هنا عندى ، الحمد لله ما ماتت حتى كفرت به ورجعت إلى

الحنيفية .

مسعود : الحمد لله ! ولكن ما الذى غيرها عليه ؟

جابر : رأته يواصل النساء ويفجر بهن فى الدار التى اتخذها نديا له ، وكان يزعم لها أن ذلك يحل له .. وكانت هى تحبه فلم تسطع صبرا على ذلك فماتت كمدا .

مسعود : ألم تكن تعلم من أول الأمر أنه كاذب ؟

جابر : بلى ، ولكنه عزم عليها أمام الناس بصدق ما كان يزعم من مخاريقه وترهاته فما وسعها إلا أن توافقه حبا به ، إلى أن غارت عليه من النساء فجاهرت الناس بكذبه ، ولكن بعد أن عظم أمره فلم يصدقها أحد .

مسعود : هل حدثتك أختك كيف عثر على هذا الوثن ؟

جابر : كانت تقول إن عمرا لم يفلح فى تجارته بالشام فكاد يقتل نفسه يأسا ، لولا أن مر ذات يوم على قوم من العماليق يعبدون الأصنام فنزل عند كاهنهم ، فأضافه وأكرمه وأقام عنده عمرو برهة . وكان هذا الكاهن ثريا تأتيه الأموال وهو قاعد لا يعمل شيئا ، فخطر لعمرو أن يصنع مثله فطلب منه أن يعطيه صنما من أصنامهم ليسير به إلى أرض العرب ، فأعطاه الكاهن هذا الصنم وراحلة تحمله ومالا كثيرا .

مسعود : قبحا له ، فقد غير دين إسماعيل من أجل المال .

جابر : أجل ليبر القسم الذى أقسمه ، وقد فعل .

مسعود : إنى أريد أن ألقاه يا جابر وأخلو به فأعظه وأنصحه ، لعله يسمع لى فيرعوى عن غيه هذا الذى فتن به الناس .

جابر : هيهات يا مسعود .. لئن رجع بعد فلن يرجع الناس عن هذا الشرك بعد ما أباح المسكر والميسر والهنات الأخر ، وبعد أن صار هبل وأنداده أعظم فى قلوبهم من الواحد الأحد الذى لا تدركه أبصارهم .

مسعود : قد تنفع الذكرى يا جابر . وقد كان لى بعض الفضل عليه فيما سلف ، وكان يحبنى ويعزنى ، فهل لك أن ترسل غلامك إليه ليقول له إنى هنا عندك وإنى أشتهى أن أجتمع به ؟

جابر : حبا وكرامة ، وإن كنت لا أطيقه ولا هو يطيقنى بغضا .

٢

(فى دار عمرو بن لحى)

عمرو : **(لصاحبه وحواريه عامر)** هل تذكر يا عامر كم نحرنا للحجيج فى الموسم الماضى ؟

عامر : نحرنا لهم خمسة آلاف بدنة .

عمرو : وكم كسونا ؟

عامر : كسونا ستة آلاف حلة .

عمرو : فلتنحرن لهم هذا العام عشرة آلاف بدنة ، ولتكسون عشرة آلاف حلة .

عامر : إذن تصفر الخزانة يا عمرو .

عمرو : لا تخف ، إن هبل معنا .. كلما زدنا فى الإنفاق زادنا هبل غنى .. سوف تأتينا النذور من جميع قبائل العرب . انطلق يا عامر فأحص ما عندنا من البذن لنرى كم ينقصها .

عامر : سمعا ياعمرو . **(يهم بالخروج)**

عمرو : وائذن لمن بقى بالباب من الزوار .

عامر : سأفعل . (يخرج)

(يدخل شيخ كبير ورجل كهل وامرأة شابة وضيئة فيركعون جميعا لعمرو ويلثمون فضل ردائه)

عمرو : مرحبا يا أحباء هبل ! ما حاجتكم ؟ أنت أولا يا شيخ العرب .

الشيخ : جئت أيها الصفى أستفتيك فى فحل لى لما يمض عليه عندى غير خمس حجج .

عمرو : أوَ قد شهد فحلك هذا نتاج نتاجه ؟

الشيخ : نعم .

عمرو : فهو حام لا يركب ظهره ولا يمنع عنه كلأ ولا مرعى .

الشيخ : فلمن هو يا عمرو ؟

عمرو : هو لله .

الشيخ : كلا لا أريد أن أهديه لله بل لهبل !

عمرو : ويلك أيها الشيخ إذا أهديته لله فقد هديته لهبل ، وإذا هديته لهبل فقد أهديته لله . إنهما شيء واحد . انصرف مبارك لك فى مالك ! ويرعاك هبل !

الشيخ : (**يهتف فرحا**) اعل هبل ! اعل هبل ! (**يخرج**)

المراة : وأنا أيها الصفى .

عمرو : (**يغمز لها جفنه**) انتظرى أنت . هذا السيد أولا ما حاجتك ؟

الكهل : جزيت الخير أيها الصفى .. إن زوجى عليلة دنفة فادع لى هبل أن يشفيها لى .

عمرو : إنى أراك على يسار ، فكم تنذر لهبل إذا شفاها لك ؟

الكهل : عشرين ناقة .

عمرو : ألا تستطيع أن تضعفها ؟

الكهل : لا يا ابن لحى .. إنها نصف ما أملك .

عمرو : أنت وما تسخو به نفسك . إذا كان الغد فسق نذرك إلى حظيرة هبل فسيعافى لك زوجك .

الكهل : أحقا يا ابن لحى ؟

عمرو : نعم .

الكهل : (**يهتف فرحا**) اعل هبل ! اعل هبل ! (**يخرج**)

عمرو : (**ينظر إلى المرأة نظرة غزلة**) وأنت أيتها الحسانة الرعبوب ، أية لبانة نفس ساقتك إلى ؟

المرأة : أنا عاقر يا عمرو ، فما أنذر لهبل كيما يهبنى الولد ؟

عمرو : أهدى له أنفس ما عندك !

المرأة : هذا السوار الذهب يا عمرو ؟

عمرو : هلا خيرا منه ؟

المرأة : وحياتك ما أملك خيرا منه ؟

عمرو : بل تملكين ما يسبى اللب ويرضى القلب ! (**يحاول ضمها وتقبيلها**)

المرأة : (**تدفعه عنها**) ويلك يا ابن لحى إنما جئت ابتغى رضوان هبل لا رضوانك .

عمرو : ويلك يا خرقاء هل تنالين رضوانه إلا برضوانى ؟

المرأة : ويقضى لى حاجتى يا عمرو ؟ يهبنى الولد ؟

عمرو : نعم . نعم .

المرأة : فماذا على أن أصنع ؟

عمرو : إذا كانت الليلة القابلة فاطرق دار الضيافة عند العتمسة ، فستجدين ما تحبين .

المرأة : لن أحمد غير هبل : اعل هبل ! اعل هبل !

٣

(فى بيت جابر بن سهل الخزاعى)

جابر : انظر يا مسعود .. إنه أقبل !

مسعود : وماذا يصنع هذا الخلق معه ؟

جابر : يلثمون مواطىء قدميه ومساحب حلته ! انظر إليه كيف يختال فى حلته السيراء يفتن بها قلوب النساء !

مسعود : يا لضيعة دين إسماعيل وأبناء إسماعيل !

جابر : هل لك أن تستقبله أنت وحدك ؟

مسعود : وأنت ؟

جابر : سأحتجب عنه . إنى لا أطيق رؤية وجهه ولا سماع حديثه .

مسعود : كما تشاء .

(ينسحب جابر إلى داخل الدار)

(يدخل عمرو بن لحى)

عمرو : مرحبا بالصديق القديم والأخ الحميم ! مرحبا بك يا مسعود .. ألا تعانقنى ؟

مسعود : لا ينبغى أن أعانق من بدل دين إسماعيل .

عمرو : ويحك يا ابن وائلة ! أدعوتنى لتسمعنى هذا ؟ ألا ترانى لبيت دعوتك وأنت فى دار عدوى إكراما لك وعرفانا لقديم حقك ؟ ثم تستقبلنى بهذا الجفاء ؟

مسعود : إنما أنصحك يا عمرو لمكان الصداقة التى بيننا ، فوالله لعزيز على أن أراك تضل هذا الضلال البعيد وقد كنت ذا رشد . أتتهمنى فى نصحى ؟

عمرو : كلا يا أخى إنك لنعم الناصح ، ولو قبلت نصحا من أحد فى هذا الأمر لقبلته منك ، ولكن لا سبيل إلى ما تريد .

مسعود : ألست تؤمن بالله يا عمرو وباليوم الآخر ؟

عمرو : بلى .

مسعود : فما هذا الصنم الذى تعبده من دون الله ؟

عمرو : كلا لست أعبده يا مسعود .

مسعود : فقد دعوت الناس إلى عبادته ففتنتهم عن دينهم .

عمرو : لو كانوا يؤمنون حقا بدين إسماعيل ما استطاع أن يفتنهم عنه أحد . ولكن ذلك الدين قد بطل معناه فى نفوسهم وما بقى إلا رسمه ، فلو لم أجئهم أنا بهذا الشرع الجديد لجاءهم به غيرى فلآمنوا به كما آمنوا بى ، وإذن لكنت حريا أن أدخل فيما دخلوا فيه تابعا من الأتباع ليس لى شأن يذكر ولا مجد ينشر .

مسعود : أتعد ذلك مجدا يا عمرو ؟

عمرو : وأى مجد يا مسعود ! ما فى أرض العرب اليوم من يكثرنى مالا أو يفوقنى جاها أو يطاولنى مجدا ورفعة !

مسعود : والآخرة يا عمرو ؟

عمرو : لن أكون يومئذ شرا مكانا من هؤلاء الخلائق الذين دخلوا فى دينى وعبدوا هبل وأنداده من حيث لا أعبدهم .

مسعود : فأنت الذى أوقعتهم فى هذا الشر وزعمت أنك بمنجاة منه ، أما إنهم بعد لقومك يا عمرو ، أفلا يعطف قلبك عليهم حقوق جوار أو وشائج قربى ورحم ؟

عمرو : بلى يا مسعود . إنى وحقك ما ابتغيت لهم سوى الخير . لقد عسر عليهم أن يعبدوا إلها لا تدركه أبصارهم فأتحت لهم هذا الرب المنظور ، فاطمأنت به نفوسهم واستراحت من وخز الشك قلوبهم ، فهم يعبدونه مخلصين ويجدون حوائجهم تقضى به والضر يكشف عنهم والخير يبارك لهم فيه .

مسعود : ذلك الشيطان يا عمرو قد اتخذك له مطية .

عمرو : أفليس ذلك خيرا من أن يتخذ الشيطان مطية له غيرى ، وأكون أنا مطية لمطية الشيطان ؟

مسعود : أعوذ بالله منك ! اغرب عن عينى أيها الفاسق اللعين ، أيها الشيطان الرجيم .

عمرو : (**مغضبا**) تلعننى يا أخا جرهم ؟ ويلك !

مسعود : أجل .. عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين ! والله لأكشفن للناس كذبك وخداعك حتى يكفروا بك ويرجموك !

عمرو : أنصحك يا هذا ألا تفعل ، فوالله الذى لا إله إلا هو ليثبن عليك فليقطعنَّك إربا إربا .

مسعود : فإنى والله لا أبالى . لأهيبن بهم ليرجعوا إلى دين إسماعيل !

عمرو : قد ذهب دين إسماعيل يا أخا جرهم وحل محله دين عمرو بن لحى بن قمعة بن خندق !

مسعود : كلا والله لا يذهب دين إسماعيل أبدا . إنه باق فى قومى .. فى جرهم !

عمرو : غدا أبعث رسلى إلى قومك فليدخلن فيما دخل فيه الناس ، وليقدمن على ليلثموا أطراف هذه الحلة الدمقس ! (**يختال فى حلته خارجا**) انظر إليها من خلفى هل رأت عينك أيها الجرهمى أفخر أو أجمل منها قط ؟

مسعود : لتجرجرن ذيلك غدا فى نار جهنم !

عمرو : (**ضاحكا**) إذن يحسدنى أهل النار عليها !

مسعود : لن تكون يومئذ حلة من الدمقس !

عمرو : فماذا تكون ؟

مسعود : لتكونن قُصبك يا كافر وأمعاءك ! ولتؤذين أهل النار بريحها النتنة !

عمرو : (**يقهقه ضاحكا**) إذن أكون أنا سوط عذاب عليهم ! عانقنى

غدا يا صديقى القديم إذا لقيتنى هناك ! (**يخرج**)

مسعود : (**يزفر فى حرقة**) وى ! وى ! وى !

جابر : (**يدخل**) ما خطبك يا مسعود ؟

مسعود : ويل بنى إسماعيل من شر مستطير ! والله لا أقيم بهذه البلدة ساعة من نهار !

جابر : بل تبقى اليوم عندى .

مسعود : كلا كلا إنى أخاف أن يصيبنى عذاب من الرحمن فى هذه الدار الرجس !

جابر : ويحك يا أخى ! أوَ ما تؤمن برب هذه الكعبة ؟

مسعود : بلى يا جابر .

جابر : فليبعثن الله يوما من يطهر حرمه هذا من هذا الرجس ، وليحيين به دين إسماعيل وملة إبراهيم ؟

(**ستار**)

أصحاب الغار

(المنظر : واد ضيق بين جبلين ، السماء مجللة بالسحاب الداكن ، والرعد يقصف بشدة والمطر يهمي بغزارة .)

(ثلاثة رجال يمشون فى الوادى وهم يتلفتون نحو الجبل ونحو السماء فى وجل . اثنان منهم قد سبقا يعدوان والثالث يمشي متمهلا كأنه يفكر فى طريقة للنجاة .

يوسف : ما خطبك يا هارون ؟ دعنا نواصل سيرنا السريع .

هارون : (**وقد توقف قليلا**) ولكن متّى متخلف عنا .

يوسف : لا شأن لنا به .. إنه يتعمد البطء فى السير .

هارون : ما يكون لنا أن نترك رفيقنا يا يوسف . (**ينادى بأعلى صوته**) متّى ! متّى !

متى : (**صوته من بعيد**) هارون !

هارون : ماذا تصنع هناك ؟ أسرع والحق بنا .

متى : انتظر قليلا .

يوسف : ننتظر ؟ أننتظر حتى يدركنا السيل ونحن فى بطن الوادى فنهلك ؟

هارون : انتظر ! ها هو ذا يعدو مسرعا إلينا .

متى : (**يظهر وهو يلهث من الجرى**) من رأيى يا صاحبى أن نقف هنا عن السير .

يوسف : لكى يطوينا السيل إذا جاء ؟ أتريد أن تهلكنا يا رجل ؟

متى : بل أنت الذى تريد أن تهلكنا برأيك السقيم . ليس فى وسعنا أن نسبق السيل إذا أقبل ولكن فى وسعنا أن نتقيه .

يوسف : وكيف نتقيه ؟

متى : نلجأ إلى ذلك الغار فى سفح الجبل .

(يسمع هدير السيل من بعيد)

هارون : وى ! اسمعا ! هذا السيل قد أقبل ! هذا هديره !

متى : هيا بنا .. أسرعا .

يوسف : لكن . لكن هذه الصخرة المتقلقلة على فم الغار .

متى : ما بالها .

يوسف : ألا تخشيان أن تقع فتنطبق علينا فيه ؟

متى : هذه الصخرة ظلت واقفة هكذا منذ دهور .. أفلا تسقط إلا يومنا هذا ؟

يوسف : من يدرى ؟

متى : (**محتدا**) أوه .. إذن نموت جميعا ونستريح من صحبتك .

هارون : رويدكما .. لا وقت عندنا للشجار . إلى الغار وليفعل الله ما يشاء !

(يصعدون مسرعين فى سفح الجبل)

٢

(داخل الغار . يتسرب إليهم بعض النور من فم المغارة . وقد اشتد هدير السيل)

متى : أرأيت يا صاحب الرأى الحصيف ؟ لو لم ندخل هذا الغار لجرفنا هذا السيل الهائل .

يوسف : وإذا انطبقت هذه الصخرة علينا ؟

متى : **(يقهقه ساخرا)** حينئذ أعترف بصواب رأيك .

هارون : ويلكما ! أليس خيرا من هذه المجادلة أن نذكر الله سبحانه وتعالى وندعوه أن يحسن عاقبتنا ؟

(تسمع قرقعة من ناحية فم الغار)

هارون : وى ! ما هذا ؟

يوسف : هذه الصخرة تتحرك !

متى : فال الله ولا فالك .

يوسف : ها هى ذى انطبقت !

(ينسد فم الغار الذى يتسرب منه النور فيسود الظلام)

هارون : لا حول ولا قوة إلا بالله .

يوسف : ألم أقل لكما إنها غير ثابتة وتوشك أن تقع ؟ دبّر لنا الآن مخرجا يا سيد متى يا صاحب الرأى الحصيف !

متى : لو بقينا فى بطن الوادى لكان هلاكنا محققا .

يوسف : وهلاكنا الآن غير محقق ؟

متى : كل هذا من سوء تشاؤمك .

يوسف : تشاؤمى هو الذى حرك الصخرة ؟

متى : نعم .

هارون : يا أخوى كفى مراءً ومجادلة . ما أظن هذا الذى أصابنا إلا عقوبة لكما من الله على هذا الجدال واللدد .

يوسف : لا حق لك يا هارون أن توجه اللوم إلى . غيرى هو الملوم .

هارون : بالله عليك يا يوسف دعنا من هذا الآن . أين متى ؟ ماذا تصنع هناك يا متى ؟ إنه يحاول أن يزحزح الصخرة .

متى : لا تسخر منى يا يوسف .

هارون : يوسف . ألا تريد أن تكف ؟

يوسف : يا أخى أنا لا أسخر ، ولكن هذه قطعة جبل لا يقدر أن يزحزحها ولا مائة رجل .

هارون : تعال يا متى اجلس قريبا منى . إننا لا محالة هالكون إلا أن يتداركنا الله بلطفه . اقترب منى أنت أيضا يا يوسف .. هات يدك .

يوسف : هاك يدى .

هارون : (**يضع يد يوسف فى يد متى**) تصافيا أولا وتسامحا فإن الله لن ينظر إلينا وبيننا هذه القطيعة .

يوسف : سامحني يا متى .

متى : سامحتك ، وأنت سامحني يا يوسف .

يوسف : سامحتك يا أخي .

هارون : الحمد الله ! والآن أصغيا إلى .. لقد سمعت من بعض علمائنا العارفين أن أحسن ما يدعو به المرء ربه فى ساعة الشدة أن يتوسل إليه بصالح أعماله . فليذكر كل واحد منا أصلح عمل عمله فى حياته فليدع الله به .

متى : ابدأ أنت يا هارون .

يوسف : أجل .. أنت أصلحنا نحن الثلاثة .

هارون : الله وحده هو الذى يعلم أينا الأصلح . وإنى لكثير الذنوب جم الخطايا . وما أعرف لى من عمل صالح اللهم إلا ما كان من برى بوالدى الكبيرين .

متى : فاذكر ذلك فإن بر الوالدين من أفضل الأعمال .

هارون : كان من عادتى إذا رجعت من المرعى ، أن أحلب فأسقى أبوى الكبيرين أولا قبل زوجتى وأولادى وقبل أى واحد فى الدار . وذات يوم تأخرت فى المرعى و لم أعد إلى أهلى إلا بعد ما أمسى المساء ، فاستقبلتنى زوجتى فى قلق .

(ينتقل المنظر إلى بيت هارون)

(هارون واقفا وبيده صفحة من اللبن وأمامه زوجته حنة)

الزوجة : ماذا أخرك يا هارون اليوم ؟

هارون : نأى بي الشجر يا حنة فأبعدت . أين أبي وأمي ؟
الزوجة : انتظراك طويلا حتى غلبهما النوم فناما .
هارون : ويحهما ناما قبل أن يتعشيا .
الزوجة : هات هذا الذى حلبته لأسقيه للأولاد فإنهم يتضاغون جوعا .
هارون : كلا يا حنة .. لن أسقى قبلهما أحدا .
الزوجة : اسق هذا لأولادك ثم احلب لأبويك حين يستيقظان .
هارون : كلا لن أخِلَّ بعادتى معهما أبدا .
الزوجة : إذن فأيقظهما ثم احلب لأولادك .
هارون : لا ينبغى أن أزعجهما من نومهما الساعة .
الزوجة : فماذا أنت صانع ؟
هارون : سأبقى هنا واقفا حتى يستيقظا فأقدم لهما اللبن .
الزوجة : ما هذا الذى تصنع ؟ لم تلصق الصفحة هكذا ببطنك ؟
هارون : ليبقى اللبن دفيئا يا حنة . اذهبى أنت إلى الأولاد .
الزوجة : ماذا أصنع لهم ؟
هارون : علليهم حتى يناموا . (**عود إلى الغار**)
متى : ومتى استيقظ أبواك ؟
هارون : حينما برق الفجر .
يوسف : وبقيت طول الليل واقفا بصفحة اللبن ؟
هارون : نعم وأنا أضمها إلى بطنى من تحت الثياب .
متى : طوبى لك يا هارون ! ما سمعنا بولد بر والديه كهذا قط .
هارون : (**يرفع يديه مبتهلا بالدعاء**) اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج عنا ما نحن فيه .

متى : انظر يا هارون الصخرة انفرجت !

يوسف : أجل ، هذا الوادى قد ظهر !

هارون : اللهم لك الحمد .

متى : وى ! .. ولكننا لا نستطيع الخروج بعد .

هارون : دوركما الآن . اذكرا أرجى عمل عملتماه .

متى : ابدأ أنت يا يوسف .

يوسف : بل تبدأ أنت .. أنت أفضل منى .

هارون : لا بأس ، ابدأ أنت يا يوسف .

يوسف : ماذا أقول ؟

هارون : اذكر ما تعرف . لا تحقر شيئا من العمل فإن الله لا يحقر شيئا .

يوسف : فى بالى شيء ولكنى أستحى أن أذكره .

هارون : ويحك ! إن العمل الصالح لا يستحيا من ذكره .

يوسف : إنه يمس عرض قريبة لى .

هارون : نعاهدك ألا نفشى هذا السر لأحد .

يوسف : كانت لى ابنة عم أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وكنت فقيرا فزوجها أهلها لغيرى ، فظل حبها ناميا فى قلبى . وسعيت فى طلب الرزق حتى أصبحت غنيا ، فوسوس لى الشيطان أن أغريها بالمال فاستعصمت منى .. إلى أن ألمت بها سنة من السنين فجاءت تطلب عونى .

(ينتقل المنظر إلى بيت يوسف)

يوسف : مرحبا بالحبيبة . لعلك اليوم رضيت عن ابن عمك المدله بحبك . اجلسي على هذا الفراش الوثير .

هي : هات يا يوسف الستين دينارا التي وعدتني بها .

هو : وتجودين علي بوصلك ؟

هي : إذا أردت .

هو : خذي إذن ضعف ما طلبت ، خذي مائة وعشرين دينارا ، وإن شئت يا حبيبتي زدتك فوق ذلك .

هي : لا يا ابن عمي . هذا يكفي وزيادة .

هو : هاك يا منية النفس . **(يناولها كيسا من الدنانير)**

هي : جزيت خيرا يا يوسف ! ستحيي بمعروفك هذا زوجي وأولادي .

هو : أرجوك ، لا تذكري زوجك الآن .

هي : عجبا لك يا يوسف . أتغار أنت من زوجي وزوجي لا يغار منك ؟

هو : ماذا تقولين ؟

هي : لقد استأذنته فأذن لي .

هو : أذن لك ؟

هي : والدمع في عينيه خشية أن يموت أطفاله جوعا .

(يتغير وجه يوسف ولكنه يغالب شعوره هذا ويأخذ بيد

المرأة)

هو : إذن فقد جعلنا زوجك فى حل منه . فهلمى يا حبيبة القلب نستمتع .

هى : (**يطفر من عينيها الدمع**) أنا طوع أمرك .

هو : (**يرسل يدها**) لكنك تبكين . ما خطبك ؟

هى : إنى خاف الله رب العالمين .

هو : (**يرتعد خوفا**) يا ويلى من كافر بنعمة الله . تخافينه أنت فى الشدة ولا أخافه أنا فى الرخاء ! والله لا تمس يدى ثوبك أبدا .

هى : والمال يا يوسف ؟ خذه إذن .

هو : كلا قد وهبتك إياه لوجه الله .. ارجعى إلى أولادك .

هى : لكن زوجى سيظن أنك ..

هو : مالى ولزوجك ؟ إنى لا أخافه بل أخاف الله رب العالمين .

(عود إلى الغار)

متى : وانصرفت بالمال من عندك ؟

يوسف : نعم ، وإن قلبى ليذوب إليها شوقا . (**يدعو الله مبتهلا**) اللهم إن كنت تعلم أننى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه .

متى : (**هاتفا**) الصخرة تتزحزح !

هارون : اللهم لك الحمد .

متى : ها هى ذى السماء ! أستطيع الآن أن أرى السماء !

يوسف : الحمد لله .

متى : لكن واحسرتاه ! الخروج متعذر بعد .

هارون : هات أنت يا متى الآن .

متى : ما عندى غير عمل واحد مرجو عند الله ، وكنت أحب أن أحفظه سرا بينى وبين ربى .

يوسف : اذكره يا متى وتوسل إلى الله به .

متى : كانت لى مزرعة فيما مضى ، فاستأجرت ذات يوم أجراء ليعملوا فى أرضى ، فلما انقضى النهار أعطيتهم أجورهم ما خلا واحدا اسمه سليمان أبى أن يأخذ أجره مستقلا إياه . وأردت أن أزيده فأعرض عنى ومضى ، فوقع فى قلبى منذ ذلك هم عظيم ، وبحثت عنه فى كل مكان فلم أعثر له على أثر ، فبدا لى أن أثمر له أجره هذا ، فإذا الله يبارك فيه حتى نما وتكاثر . وجاءت جائحة فأتت على مالى فلم يبق فى يدى غير مال سليمان هذا ، فصارت زوجتى تحرضنى على الأخذ منه .

(ينتقل المشهد إلى بيت متى وأمامه زوجته)

هو : كلا يا تامار .. إنه مال ذلك الأجير .

هى : أنت الذى ثمرته ونميته .

هو : لكن الأصل حقه هو وقد بارك الله له فيه ، ولو كنت خلطته

بمالى لأتت عليه الجائحة فيما أتت .

هي : خذ من هذه الأنعام ولو شاة واحدة ، تذبحها لنا فى العيد لتوسع بها على العيال .

هو : كلا والله لا أمس منها شيئا حتى يجىء صاحبها .

هي : ومتى يجىء صاحبها ؟ لعله قدمات .

هو : إن يكن قد مات فلعلى أهتدى يوما إلى ورثته فأسلمها لهم .

(عود إلى الغار)

يوسف : وهل جاء صاحبها يا متى بعد ذلك ؟

متى : نعم جاء سليمان بعد خمس سنين .

(بيت متى من جديد)

سليمان : متى .. متى ، ألا تعرفنى ؟

متى : من ؟ سليمان ؟

سليمان : أجل أنا سليمان . إنك لتذكر اسمى.

متى : أين كنت يا أخى ؟ لطالما بحثت عنك .

سليمان : لتستأجرنى مرة أخرى فتظلمنى حقى .

متى : بل لأعطيك حقك . والله بحثت عنك فى كل مكان .

سليمان : لتعطينى صاع الأرز الذى تركته لك ؟ اعلم يا متى أن الله قد أغنانى اليوم عن ذلك الصاع .

متى : تعال انظر . أترى هذه الأنعام ورعاءها ؟

سليمان : أجل : قد أثريت يا متى بعدى .

متى : كلا . هذه ليست لى يا سليمان . هذه كلها لك أنت قد أثمرتها من صاع الأرز الذى رفضته .

سليمان : ماذا تقول ؟

متى : ظلت أمانة عندى ، فخذها اليوم وأرحنى من حفظ أمانتك .

سليمان : لا تستهزىء بى يا متى ، فلست اليوم فقيرا فأحتمل سخريتك .

متى : إنى والله لا أستهزىء بك .

سليمان : أحقا ؟

متى : إى والله الذى لا إله إلا هو إن هذه الأنعام كلها لملك لك .

سليمان : ما أعظم والله أمانتك ! لأترك لك نصفها يا متى .

متى : لا وجزاك الله خيرا . لن آخذ منها شيئا .

سليمان : ربما تحتاج إليها يا متى !

متى : ويحك يا سليمان ! ترانى كنت أحفظها لك لو لم يغننى الله عنها ؟ الحمد لله الخير عندى كثير .

(عود إلى الغار)

يوسف : واستاق الأنعام كلها ؟

متى : نعم ، وغاضبتنى زوجتى شهرا لا تكلمنى من أجل أنى رفضت ما عرض على سليمان ، وقلت لها إن الله هو الواهب الرزاق .

هارون : طوبى لك يا متى . هذا والله أعظم من عملى ، وعمل يوسف ، فادع الله به أن يفرج عنا ما نحن فيه .

متى : (**يبتهل بالدعاء**) اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه .

يوسف : (**هاتفا**) انظر ! الصخرة تتقلقل من مكانها ! يالله ! إنها تدحرجت !

(ينفتح فم الغار أوسع مما كان ويسمع تدحرج الصخرة إلى أسفل)

هارون : الحمد لله ! نجونا ! نجونا !

الثلاثة : (**يتعانقون فى بهجة وفرح**) الحمد لله . الحمد لله .

(ختام)

الحائط القصير

(المنظر : فى الجيزة بمصر فى عهد عمر بن عبد العزيز . فناء متوسط بين بيتين صغيرين أحدهما لفرتونة السوداء والآخر لفرتونة البيضاء . يبدأ المنظر وفرتونة السوداء جالسة بجوار باب بيتها فى الفناء تغربل حبا لها وإذا صوت فرتونة البيضاء يسمع من داخل بيتها .)

الصوت : فرتونة يا سوداء .. يا فحمة ! يا جنح الليل !

السوداء : لا حول ولا قوة إلا بالله . متى يتوب الله علىّ من جوار هذه السليطة المؤذية ؟

البيضاء : **(تدخل حاملة ديكا أبيض يصيح فى يدها)** أنت هنا تغربلين الحب وتسيبين ديكك هذا ينقر أفراخى ويأكل عليهن الحب . **(ترمى الديك فى حجر صاحبته بقوة)** خذيه !

السوداء : **(تأخذ الديك)** معذرة يا أختى . ما علمت والله أنه تسور الحاجز إلى حائطك .

البيضاء : ألم أقل لك أن تحبسى هذا الديك اللعين فى القفص ؟

السوداء : لا أستطيع أن أحبسه فى القفص طول اليوم .

البيضاء : بل تعمدت إطلاقه ليأكل الحب عندى .

السوداء : خذى ما شئت من هذا الحب مكان ما أكله عنـدك ، واكفينى شر لسانك .

البيضاء : (ثائرة) خذى ما شئت من هذا الحب ! هل قال لك أحد إنى محتاجة إلى حبك ؟

السوداء : ماذا أصنع لك ؟ هاتى ديكا من ديوكك ليأكل عندى .

البيضاء : ما عندى ديك جائع . الحظيرة عندى ملأى بالحب .

السوداء : والحظيرة عندى كذلك والحمد لله . ولكن هذا الديك الشقى يترك الخير الكثير ويتقمم عندك . ما حيلتى فيه ؟ دنىء النفس !

البيضاء : مثل صاحبته !

السوداء : بل هو فصيلتك ! أبيض مثلك !

البيضاء : والله لئن وجدته عندى مرة أخرى لأقصفن رقبته .

السوداء : اتقى الله يا هذه فى الرَّحِم !

البيضاء : قد أنذرتك فلا تلومينى .

(يدخل شنودة الكاتب)

شنودة : عواف يا جارتىّ ذى أصبح ! عواف ! ما خطبكما ؟ دائما فى شجار وخصام ؟ أى عيشة هذه ؟

السوداء : ماذا أعمل يا شنودة ؟ تتحرش بى فى كل حين كأن لها ثأرا عندى . ليتك تدلنى على بيت آخر أسكنه بعيدا عن هذه

المؤذية .

البيضاء : علام التعب ؟ دعيه يكتب لك رسالة أخرى إلى أمير المؤمنين بدمشق ، ليبنى لك قصرا فى حلوان !

السوداء : أوه . انتهينا من حكاية الديك ورجعنا إلى حكاية الرسالة . الويل لنا منها ستظل ترددها حتى الليل .

البيضاء : بل سأظل أرددها ما حييت . إنها أطرف قصة يتفكه بها الجُلاس والسُّمَّار . (**تضحك ساخرة**) رسالة ممن ؟ من فرتونة السوداء بالجيزة .. إلى أمير المؤمنين بدمشق . فى أى شىء ؟ فى حائطها القصير تريد من أمير المؤمنين أن يرسل بنائيه المهرة ليبنوا لها حظيرتها حتى يرتع دجاجها فى الرخام والمرمر !

السوداء : (**كاظمة غيظها**) اسخرى ما شئت . لن أرد عليك . سأذهب إلى بعض جاراتى وأترك الدار لك . (**توصد باب بيتها وتهم بالخروج**)

شنودة : وأنا أيضا سأنصرف .

البيضاء : بل انتظر قليلا يا شنودة .

شنودة : دعينى أسترزق يا فرتونة .

البيضاء : عندى رسالة أريد أن تكتبها لى .. انتظر (**ثم لفرتونة السوداء**) إياك أن تذهبى بعيدا فقد يجىء رسول أمير المؤمنين بالجواب فلا يجدك .

السوداء : إن جاء فخذى الجواب لك أنت . (**تخرج غاضبة**)

البيضاء : (**ترفع صوتها لتسمعها**) آخذه ؟ أنا مجنونة ؟ آخذ السياط في ظهرى مكان ظهرك ؟

شنودة : لا حق لك أن تروعيها هكذا يا فرتونة !

البيضاء : أحلق شعر رأسى هذا إن لم يجىء شرطى الأمير غدا فيسحبها من قرونها إلى السجن .

شنودة : هذا محال .

البيضاء : وأنتف أهداب عينىّ هاتين إن لم يسألوا عن الذى كتب لها الرسالة ليقطعوا يده !

شنودة : هذا غير معقول .

البيضاء : غير معقول عندك . إنك لاتعرف مقام أمير المؤمنين وعقوبة التطاول عليه . خبرنى هل تكتب بيدك اليسرى أيضا يا شنودة ؟

شنودة : لا .. بيدى اليمنى فقط .

البيضاء : فسينقطع عيشك يا بطل !

شنودة : (**يعتريه شىء من الخوف**) لكن ما ذنبى أنا ؟ الرسالة ليست منى .

البيضاء : أنت كتبتها بيدك .

شنودة : بالأجرة . هذا عملى الذى أعيش منه .

البيضاء : كان عليك أن تنصحها وتبصرها بما ينبغى وما لا ينبغى ،

فهى جاهلة حمقاء وأنت لبيب تعقل وتفهم .

شنودة : على كل حال ما كتبت اسمى على الرسالة ، فلن يعلموا أننى الذى كتبت .

البيضاء : وأين أنت منى ؟ لأدلنهم عليك !

شنودة : حنانك يا فرتونة . لا تفعلى أحسن الله إليك . علام تريدين أن تخربى بيتى ؟ هل أسأت يوما إليك ؟

البيضاء : لولاك لما استطاعت هذه السوداء أن تستطيل علىّ وتتشدق أمام الناس بأنها تراسل أمير المؤمنين ، وأن رسالتها قد حملها بريد أمير المؤمنين إلى دمشق .

شنودة : لو لم أكتب لوجدت من يكتب لها غيرى .

البيضاء : كلا ما كانت لتجد أحمق سواك يعينها على ارتكاب هذه الجريمة !

شنودة : لكن الكاتب بالأجرة غير مسئول عما فى الرسائل التى يكتبها للناس .

البيضاء : ما شاء الله ! أئذا أمليت عليك هجاء فى أمير المؤمنين ، فكتبته لى وأرسلته فى بريده لا يعاقبك أمير المؤمنين بل يأمر لك بجائزة سنية تبعث إليك ؟

شنودة : لكن الذى كتبته لها ليس هجاء فى أمير المؤمنين .

البيضاء : لا فرق بينه وبين الهجاء . والله لو أن فرتونة السوداء هذه راسلتنى أنا لعددت ذلك إهانة لقدرى !

شنودة : يقولون يا فرتونة عن عمر بن العزيز هذا إنه عادل رحيم .

البيضاء : نعم ! ولكن هل جزاء العادل الرحيم أن ينتهك مقامه ويتطاول عليه ؟ أليس للملوك مقام عندكم ؟

شنودة : (**ينظر أمامه في الزقاق**) وى ! هذا شرطى قد أقبل فى الزقاق .

البيضاء : ألم أقل لك ؟ وهذه بغلة أحد الأمراء فيما أظن .

شنودة : هذا الأمير أيوب بن شرحبيل ! رحماك يا فرتونة استرى علىّ ستر الله عليك . سأكتب لك رسالتك مجانا بغير أجر .

البيضاء : إذن فادخل جوَّ البيت لئلا يروك . (**يتوارى شنودة خلف الباب**)

(يظهر الأمير أيوب بن شرحبيل فى طرف الفناء)

أيوب : السلام عليكم يا أهل الدار .

البيضاء : وعليك السلام .

أيوب : أهذا منزل فرتونة جارية ذى أصبح ؟

البيضاء : نعم يا سيدى .

(يظهر الشرطى بجوار الأمير)

أيوب : (**للشرطى**) هلا لزمت البغلة أن تند ؟

الشرطى : قد ربطتها يا سيدى الأمير .

أيوب : أنت فرتونة جارية ذى أصبح ؟

البيضاء : (**متلعثمة**) نعم يا سيدى .. لا لا يا سيدى الأمير .

أيوب : ويحك ! ألست أنت التى كتبت إلى أمير المؤمنين ليصلح لك حائطك ؟

البيضاء : حاشاى يا سيدى أن أفعل ذلك . أنا أرتكب مثل هذا الجرم ؟

أيوب : (**يضحك متعجبا**) لا تُراعى يا جارية .. إنى جئت لإصلاح حائطك بأمر أمير المؤمنين .

البيضاء : (**تتلعثم**) معذرة يا سيدى الأمير . لقد توهمت .. لقد ظننت .

أيوب : ماذا توهمت ؟

البيضاء : توهمت أن الرسالة قد أغضبت أمير المؤمنين وأنك ..

أيوب : كلا ، بل أمرنى أمير المؤمنين بأن أركب بنفسى إليك لأقضى حاجتك .

البيضاء : جزى الله أمير المؤمنين خيرا . أنا صاحبة الرسالة يا سيدى الأمير .

شنودة : (**يظهر من خلف الباب**) كلا لا تصدقها يا سيدى الأمير ، هذه ليست صاحبة الرسالة . أنا الذى كتبت لها تلك الرسالة إلى أمير المؤمنين بخطى .

أيوب : (**متعجبا**) وأنت من تكون ؟

شنودة : أنا شنودة الفيومى ، أكتب للناس بالأجرة .

أيوب : أوَلم تكتب الرسالة لهذه الجارية ؟

شنودة : لا يا سيدى ، بل لفرتونة السوداء .

أيوب : جارية ذى أصبح ؟

شنودة : نعم جارية ذى أصبح كذلك .

أيوب : أين هى ؟

شنودة : سأعود لك الساعة . (**فينطلق خارجا**)

الشرطى : ويلك يا جارية ! أتكذبين على عامل أمير المؤمنين ؟

(**تجهش فرتونة باكية**)

أيوب : دعها ، دعها يا عمرو .

البيضاء : (**فى خجل**) سامحنى يا سيدى الأمير .

أيوب : إن صدَقْتنى القول سامحتك .. ما حملك على ما صنعت ؟

البيضاء : ظننت فى أول الأمر أنكم جئتم لمعاقبة فرتونة السوداء لتطاولها بالكتابة إلى أمير المؤمنين ، فلما علمت أنكم جئتم لإصلاح حائطها طمعت يا سيدى أن تصلحوا لى حائطى أنا أيضا ، فإنه قصير يتسوره اللصوص فيسرقون منه الدجاج .

أيوب : واسمك أيضا فرتونة ؟

البيضاء : نعم يا سيدى الأمير . يدعوننى فرتونة البيضاء ويدعونها فرتونة السوداء .

(**تدخل فرتونة السوداء ومعها شنودة**)

شنودة : هذه هى يا سيدى الأمير . هذه صاحبة الرسالة .

السوداء : (**تنقل طرفها فى وجوه الحاضرين كأنها ما زالت فى شك**

من الأمر) .. ؟

أيوب : (**يخرج الرسالة**) هذا جواب أمير المؤمنين لك يا فرتونة .

السوداء : (**تتمتم**) جواب أمير المؤمنين ؟ لى أنا ؟

أيوب : نعم ، هل تحبين كاتبك هذا أن يتلوه عليك ؟

السوداء : نعم يا سيدى الأمير .

أيوب : خذ يا شنودة اقرأ لها الجواب .

شنودة : (**يفض الرسالة فيقرأ**) بسم الله الرحمن الرحيم - من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذى أصبح. بلغنى كتابك وما ذكرت من قصر حائطك، وأنه يدخل عليك منه فيسرق دجاجك، فقد كتبت لك كتابا إلى أيوب بن شرحبيل آمره أن يبنى لك ذلك حتى يحصنه لك مما تخافين إن شاء الله والسلام.

السوداء : (**تطلق زغرودة عالية ثم طفقت تدور حول فرتونة البيضاء وهى ترقص وتترنم**) من أمير المؤمنين جاءتنى التحية ! فاقتلى نفسك من غيظك يا رومية !

الشرطى : (**ينهرها**) مه يا هذه ! إن الأمير ما جاء ليشهد رقصك !

أيوب : أجل . حسبك يا فرتونة .

البيضاء : (**تجد متنفسا**) قل لها يا سيدى الأمير . إنها لا تعرف مقام أحد .

السوداء : (**تدق الأرض بقدميها وتضرب كفا بكف وتصيح فى لهجة شامتة**) اقتلى نفسك من غيظك يا رومية ! من أمير المؤمنين

جاءتني التحية !

أيوب : (**بين الغضب والابتسام**) حسبك يا جارية . لن يرضى صنيعك هذا أمير المؤمنين .

السوداء : معذرة يا سيدى فقد غلبنى الفرح لكتاب أمير المؤمنين ، فلم أملك نفسى .

أيوب : (**ملاطفا**) هل عندك دجاج كثير ؟

السوداء : الحمد لله يا سيدى . عندى الكثير الطيب . أتحب أن أريك ؟ تعال انظر من هذه الكوة .

أيوب : (**يتقدم إلى الكوة فينظر**) ما شاء الله ما شاء الله .

السوداء : لو لم يسرقنى اللصوص لكان عندى أكثر .

أيوب : غدا إن شاء الله نبعث إليك من يصلح لك هذا الحائط ويرفعه ، فلا يتسوره أحد .

البيضاء : (**تتقدم إلى أيوب فى خجل**) وحائطى هذا يا سيدى الأمير ؟ إنه قصير أيضا كما ترى .. أفلا تصلحه لى أصلح الله حالك ؟

السوداء : (**فى حدة**) كلا يا سيدى الأمير لا تفعل . ليس من العدل أن تصلح لها حائطها على نفقتى أنا !

أيوب : (**ضاحكا**) بل على نفقة أمير المؤمنين .

السوداء : كلا لن يرضى أمير المؤمنين ذلك . أنا التى دفعت أجرة الكاتب . سله فهو أمامك .

شنودة : أجل يا سيدى الأمير .

أيوب : كم دفعت له يا فرتونة ؟

السوداء : درهمين .

أيوب : فليكن منك درهم ومنها هي درهم .

البيضاء : أحسنت يا سيدى وعدلت . (**وتخرج درهما من بين ثيابها**) خذى الدرهم !

السوداء : (**تعرض عنها**) كلا . ماذا أصنع بدرهمها ؟ والله لا أرضى أبدا أن تنال خيرا على يدى .

أيوب : ويحك ! إن لها عليك حق الجوار وحق الولاء لسيد واحد ، فهي أختك .

السوداء : أختى ؟ كلا يا سيدى . هذه دائما تعيرنى وتسخر منى وتتندر على ، سل عنها الجيران والجارات .

البيضاء : لا تصدقها يا سيدى الأمير ، إنها تكذب .

أيوب : (**ينهرها**) ويلك قد كذبت أمامى مرة فلا تحاولى أن تكذبى مرة ثانية . توبى إلى ربك يا جارية ، واعلمى أن الناس سواسية كأسنان المشط لا يفضل أحد أحدا بلونه أو ماله أو نسبه ، وإنما الفضل بالتقوى . ويلك ألم تسمعى قول الله عز وجل : يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن .

البيضاء : (**تبكى**) قد تبت يا سيدى الأمير . لن أفتح فمى بما يؤذيها أبدا .

أيوب : راضيها فإنى لن أبنى لك حائطك إلا إذا رضيت عنك .

البيضاء : (**تقوم إلى صاحبتها فتقبل رأسها**) سامحينى يا أختى . والله لا أسمعك ما تكرهين أبدا .

السوداء : والديك ، أتقصفين رقبته إن عاد إلى حائطك ؟

البيضاء : كلا يا أختى . سأتركه يفعل ما يشاء .

أيوب : ما قصة الديك يا فرتونة ؟

السوداء : عندى يا سيدى الأمير ديك أبيض دنىء النفس ، يترك الحب الوفير الطيب فى حظيرتى ويذهب إلى حظيرتها يتقمم !

البيضاء : أتسمع يا سيدى الأمير ؟ إنها تشتمنى وتعيرنى بلونى !

أيوب : ويلك يا فرتونة ! أهكذا أنت ؟

السوداء : توبة يا سيدى الأمير . لن أعود لمثلها أبدا (**تقبل رأس البيضاء**) سامحينى يا أختى . حقك على . لا تعيرينى ولا أعيرك . اتفقنا ؟

البيضاء : اتفقنا .

السوداء : اشهد أنت يا شنودة .

أيوب : (**يضحك**) على بالبغلة يا عمرو !

(ختام)

جار أبي حنيفة

١

(حجرة فى بيت الإمام أبى حنيفة . يضيئها قنديل صغير . الإمام جالس على حصيرة للصلاة . يسمع صوت جاره يترنم بصوت شجى .)

صوت الجار : أضاعونى وأى فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر

(يبدو على وجه الإمام الأسى والشفقة ، ثم يتهلل وجهه بالابتسام وهو يتمتم قائلا :)

الإمام : اللهم اهد جارى وتب عليه . إنك أنت التواب الرحيم .

(ينهض قائما فيكبر للصلاة فى خشوع)

(ويستمر صوت الجار وهو يتغنى بالبيت ولكن أبا حنيفة فى استغراقه فى الصلاة كأنه لا يسمع ذلك الصوت بتاتا)

٢

(حجرة متواضعة فى بيت الجار (عاصم بن عبد العزيز) وعاصم جالس على بساط رث وأمامه باطية من الخمر وهو يشرب ويغنى :)

أضاعونى وأى فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

(تدخل زوجته غاضبة)

الزوجة : ألا تستحى يا رجل أن تسكر وتعربد طول الليل ؟

عاصم : أتريدين أن أسكر طول النهار ؟ فمن ذا يكسب لك رزقك ورزق عيالك ؟

الزوجة : أى رزق بقى لنا ؟ ما تكسبه تصرفه على الخمر .

عاصم : إنى أستعين بها على عملى بالنهار .

الزوجة : بل فسد عملك وكسدت بضاعتك منذ أضلك الشيطان بالخمر .

عاصم : لا تقلبنَّ الحقائق يا امرأة . ما اهتديت إلى هذا الشراب إلا منذ كسدت بضاعتى وقل كسبى . هيا ارجعى إلى فراشك . أم .. أم تشتهين أن أعطيك كأسا ؟

الزوجة : عاصم . دعنى من مزاحك هذا الثقيل . تذكر أن هذا ثالث شهر لم تدفع فيه أجرة البيت .

عاصم : (**فى قلة مبالاة**) سندفعها كاملة فيما بعد .

الزوجة : متى ؟

عاصم : يوم تنتعش حالة السوق .

الزوجة : لن يصبر صاحب البيت .

عاصم : فلينطح رأسه بالجدار . (**يعود إلى غنائه**)

أضاعونى وأى فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

الزوجة : اخفض صوتك إذن ولا تزعج جيرانك .

عاصم : جيرانى ؟ هم الآن جميعا نيام .

الزوجة : هذا جارك الشيخ أبو حنيفة يتهجد طول الليل .

عاصم : وما شأنى به ؟ لكل منا تهجده .

الزوجة : ويلك ألا تستحى أن تشغله بغنائك هذا عن صلاته وقرآنه ؟

عاصم : أنا حر فى بيتى أفعل ما أشاء . فإن ضاق بصوتى ذرعا فليترك بيته هذا وليسكن بيتا آخر بعيدا عنى .

الزوجة : أوه . إنك لا تعرف .

عاصم : لا أعرف ماذا ؟

الزوجة : لولا أبو حنيفة هذا لكان قد طردنا صاحب البيت منذ

شهر .

عاصم : كيف ؟

الزوجة : هو الذى دفع عنا أجرة الشهور الثلاثة .

عاصم : **(فى استهتار ومجون)** هيه .. أتدرين لماذا فعل ذلك ؟

الزوجة : لماذا ؟

عاصم : لأن غنائى أعجبه فلم يشأ أن يفتقد صوتى الجميل

(يغنى)

أضاعونى وأى فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر

(تخرج زوجته من عنده باكية فى يأس)

٣

(بعد المشهدين السابقين بثلاث ليال أبو حنيفة يتهجد كعادته . تظهر زوجته أم حنيفة حين يسلم أبو حنيفة من إحدى صلواته)

أم حنيفة : معذرة يا سيدى ، إن كنت تريد أن تصوم غدا فهذا أوان سحورك .

أبو حنيفة : شكرا لك يا أم حنيفة . ادخلى .

أم حنيفة : أنا ذاهبة لأحضر لك السحور .

أبو حنيفة : بل تعالى أولا حدثيني ماذا فعل جارنا الحداد ؟ ألم تزورى امرأته اليوم ؟

أم حنيفة : بلى يا سيدى . زرتها اليوم كما أمرتنى .. فوجدتها مريضة على الفراش .

أبو حنيفة : هيه ! .. لهذا إذن انقطع عنا صوت زوجها منذ ليلتين ؟

أم حنيفة : كلا يا أبا حنيفة . إنها لا تدرى أين ذهب زوجها إذ خرج منذ يومين و لم يعد .

أبو حنيفة : و لم يأتها نبأ عنه ؟

أم حنيفة : لا .

أبو حنيفة : مسكينة !

أم حنيفة : استراحت منه ومن عربدته .

أبو حنيفة : زوجها يا أم حنيفة وأبو عيالها .

أم حنيفة : هو الذى أورثها هذا المرض .

أبو حنيفة : يجب علينا أن نبحث لها عنه حتى نجده . ليتني علمت بهذا من قبل .

أم حنيفة : كلف تلميذك أبا يوسف بالبحث عنه إن شئت .

أبو حنيفة : أجل . ليس لهذا الأمر غير أبي يوسف .

٤

(فى بيت أبى حنيفة . الوقت آخر الضحى . يدخل أبو يوسف فيستقبله أبو حنيفة فى لهفة .)

أبو حنيفة : لعل اهتديت إلى شىء يا أبا يوسف ؟

أبو يوسف : نعم يا سيدى الإمام .

أبو حنيفة : خير إن شاء الله .

أبو يوسف : علمت يا سيدى أن العسس وجدوه سكران فى الطريق فقادوه إلى الحبس .

أبو حنيفة : لا حول ولا قوة إلا بالله ! ماذا دفعه إلى السكر خارج بيته ؟

أبو يوسف : هذا عربيد خليع يسكر فى بيته وخارج بيته .

أبو حنيفة : ويح المسكين ! هلم بنا يا صاح نشفع له عند الأمير عيسى بن موسى .

أبو يوسف : يا سيدى الإمام ، لطالما احتال الأمير عيسى بن موسى لتكرمه يوما بزيارتك فلم تفعل ، ثم تغدو اليوم عليه لتشفع لسكير فاجر قد أراح الله الناس من شره .

أبو حنيفة : أأعتراضا علىّ يا يعقوب ؟

أبو يوسف : نعم يا سيدى إن الدين النصيحة ، ولو كان الناصحَ يعقوب والمنصوحَ أبو حنيفة .

أبو حنيفة : صدقت ، ولكن أين المنكر ويحك ؟

أبو يوسف : لا ينبغي لأحد أن يشفع فى حد من حدود الله .

أبو حنيفة : لست هناك يا يعقوب . إنى لن أشفع فى حد يقام عليه ، ولكن سألتمس منهم إطلاق سراحه بعد ذلك .

أبو يوسف : الحبس أجدر بمثله ، فقد كان يزعج النيام بصوته .

أبو حنيفة : أشهد ما كان صوته إلا عذبا حنونا يستريح إليه النائم ، ويستأنس به المريض المكروب ، وطالما آنسنى فى جوف الليل .

أبو يوسف : لكنك تعلم يا سيدى أنه كان يشرب طول الليل على غنائه .

أبو حنيفة : (محتدا) يعقوب ، أتمضى معى إلى الأمير أم أمضى وحدى ؟

أبو يوسف : بل سأمضى معك يا سيدى ، ولكن بعد ما يطمئن قلبى إلى أن ذلك هو ما ينبغى لأبى حنيفة أن يعمله .

أبو حنيفة : إن له أهلا وأولادا يا يعقوب .

أبو يوسف : قد علمت أنه لا خير فيه لأهله وأولاده . فأنت تنفق عليهم وهو ينفق ماله فى الخمر .

أبو حنيفة : ويحك يا فتى ! إن لهذا الجار أيادى عندى تقتضينى

المروءة أن أجزيه عليها .

أبو يوسف : ما سمعت كاليوم عجبا . أى أياد يمكن لسكير مثله أن يُسديها لأبى حنيفة ؟

أبو حنيفة : ما خطبك اليوم يا يعقوب ؟ أوَ ليس يسعك أن تصدق ما أقول لك ؟

أبو يوسف : لا يا سيدى حتى أسمع تفصيله منك لأكون على بينة من أمرى .

أبو حنيفة : (محتدا) اسمع إذن وافهم . كنت أقول لنفسى : إذا كان هذا الجار يعاف النوم ويقضى الليل كله مرددا ذلك البيت من الشعر وهو لا يرجو ثوابا من الله ولا جزاء من الناس ، فما بالى أثاقل عن القيام وأنا أدعو الله وأبتهل إليه وأطمع فى خير ما عنده ؟

أبو يوسف : هذه يد واحدة فماذا غيرها ؟

أبو حنيفة : كان يقع فى نفسى أن هذا الرجل ما تخير هذا البيت خاصة ليتغنى به كل ليلة ، إلا أن حيفا ربما وقع عليه من بعض من كان يرجوهم من الناس ، فهو يجد فى ترديد البيت تنفيسا عن كربه وتهوينا لخطبه ، فكنت أقول لنفسى : الحمد لله الذى أغنانى عن الناس جميعا فلا أشكو منهم ظلما ولا حيفا ، وأفقرنى إليه وحده سبحانه وهو العادل الرحيم لا يظلم أحدا ولا يقسو على أحد

أبو يوسف : هذه ثانية .. والثالثة ؟

أبو حنيفة : كنت أعجب من أمره كيف يرفع عقيرته باللحن ليدل العسس على مكانه ويرشدهم إلى نفسه ، فكنت إذ قمت ليلة وسمعته بعد هناك تعجبت من طول حلم الله وستره عليه فأقول لنفسي : هذا ستر الله سبحانه على هذا العبد المتهتك ، فما بالك بستره على المستورين من عباده .

(كان أبو يوسف طول هذه المدة يكتب ما يسمع دون أن يشعر أبو حنيفة بذلك إذ كان مشغولا عنه بصوغ الحديث وإلقائه ، ولكن نحين التفاتة منه الآن إلى أبي يوسف) .

أبو حنيفة : ويحك ماذا تصنع يا يعقوب ؟ أتتشاغل عنى بالكتابة ؟

أبو يوسف : بل أقيد يا سيدى ما أسمع منك .

أبو حنيفة : هيه .. أكنت تعمدت خلافى لتستدرجنى إلى هذا ؟

أبو يوسف : أجل يا سيدى الإمام فهب لى سوء أدبى اليوم معك .

أبو حنيفة : قم بنا الآن إلى الأمير .

أبو يوسف : بل استمر أولا فى إملائك .. دعنى يا سيدى أسمع الرابعة .

أبو حنيفة : الآن وقد كشفت حيلتك ؟ انهض ويلك .

(يتهيآن للخروج)

٥

(فى قصر الأمير .. يظهر ركن من مجلسه .. أريكة فخمة عليها الوسائد .. بساط فاخر . الأمير يستقبل أبا حنيفة مرحبا حتى يجلسه بجانبه على الأريكة بينما يجلس أبو يوسف على مقعد أمامهما .)

الأمير : مرحبا بك يا أبا حنيفة .. ألف مرحب .

أبو حنيفة : يا عيسى بن موسى . ما هذا الذى صنع رجالك معى ؟

الأمير : أى شىء صنعوا يا أبا حنيفة ؟

أبو حنيفة : اعتنقوا بغلتى فحالوا بينى وبين النزول عنها،وأقبلوا بى راكبا حتى وطئت البساط .

الأمير : أنا أمرتهم بذلك يا أبا حنيفة تكرمة لك .

أبو حنيفة : (**ممازحا**) قم بنا نرجع يا أبا يوسف ، فلعل الأمير بالغ فى تكرمتى عند القدوم ليمهد لنفسه سبيل الاعتذار عن حاجة قد ألتمسها منه .

الأمير : (**ضاحكا**) حاشاى يا أبا حنيفة . أما والله ليسعدنى أن تقضى لك عندنا حاجة فطالما التمسنا هـذا الشرف فأعيانا . اقترح يا سيدى واحتكم فإنى أنا ورجالى رهـ

مشيئتك .

أبو حنيفة : أشتهى أن أرى جارا عزيزا لى أخذه عسسكم .

الأمير : قد قبلنا شفاعتك يا سيدى الإمام .

أبو حنيفة : ألا تسمع أولا ما ذنبه ؟

الأمير : مهما يكن ذنبه فلن أرد شفاعتك .

أبو حنيفة : هل لى أن أراه يا سيدى الأمير ؟

الأمير : ائت به يا غلام . (**يشير إلى الشرطى الواقف أمامه**)

الغلام : من يا سيدى الأمير ؟

الأمير : ويلك ! سل عن جار أبى حنيفة بين المسجونين فائتنا به .

أبو حنيفة : اسمه عاصم بن عبد العزيز .

الأمير : ائتنا بكل من اسمه عاصم بن عبد العزيز . انطلق !

الغلام : سمعا يا سيدى الأمير . (**يخرج منطلقا**)

الأمير : أما من حاجة أخرى يا أبا حنيفة ؟

أبو حنيفة : لا ، وجزاك الله خيرا .

الأمير : هل لك أن تصيب عندنا ذواقا ؟

أبو حنيفة : أنا اليوم صائم .

الأمير : هلا وأنت مفطر يا أبا حنيفة ؟

أبو حنيفة : اتفق أننى صمت اليوم .

أبو يوسف : هذا يوم صومه يا سيدى الأمير .

أبو حنيفة : (**ينظر إليه منكرا**) أبا يوسف !

الأمير : لا عليه يا أبا حنيفة . ليس بخاف علينا أنك تصوم صوم داود منذ خمس وثلاثين سنة ، فهل لصاحبك هذا الفتى أن يصيب عندنا شيئا ؟

أبو حنيفة : هذا أبو يوسف يا ابن موسى ، يصوم يوم أصوم ويفطر يوم أفطر .

(يقبل الشرطي يسوق رجلا فى يديه القيد)

الشرطى : لم نجد بهذا الاسم يا سيدى غير هذا الرجل .

الأمير : أهذا جارك المطلوب يا أبا حنيفة ؟

أبو حنيفة : لعله هو .

الأمير : عجبا كأنك لا تعرفه .

أبو حنيفة : لا أعرف وجهه ولكن أعرف صوته .

الأمير : (**متعجبا**) صوته .

أبو حنيفة : أجل يا سيدى إذ يغنى كل ليلة :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر

عاصم : يا ويلتا أكنت تسمعنى يا سيدى الإمام ؟ أعدك يا سيدى ألا أعود لمثلها .

أبو حنيفة : بل عد لمثلها يا عاصم ، فما كان للعسس أن يأخذوك من أجل أن الله أعطاك صوتا عذبا فجعلت تترنم به فى

جوف الليل إظهارا لنعمته عندك .

عاصم : أصلحك الله يا سيدى . ليس لهذا أخذنى العسس .

أبو حنيفة : فلعلهم أخذوك لأنهم حسبوا أنك تتهمهم جهارا بأنهم أضاعوك وما أضاعوك .

عاصم : لقد كنت يا سيدى أشر ..

أبو حنيفة : (**مقاطعا**) أعلم أنك كنت تلتمس العزاء فى الغناء كما يلتمس غيرك العزاء فى تلاوة القرآن . أليس هذا ما أردت أن تقول ؟

عاصم : كلا يا سيدى .. لقد كنت ..

أبو حنيفة : (**يقاطعه**) لا تنكر يا عاصم . ألا تدرى أننى هممت ذات يوم أن أزورك لأبلغك أن لو استعملت صوتك العذب فى ترتيل آيات الله مكان باطل الشعر لكنت أشكر لنعمة الله التى عندك ؟

عاصم : (**فى صرامة**) يا سيدى لقد كنت أشرب الخمر !

أبو حنيفة : (**بهدوء**) أعلم ذلك يا عاصم .

عاصم : تعلم ذلك ؟

أبو حنيفة : نعم .. أعلم أنك كنت تقرن الباطل بالباطل . ولكن أتراك كنت تشربها لو كنت ترتل كلام الله يا عاصم ؟

عاصم : معاذ الله يا سيدى الإمام . (**يبكى**)

أبو حنيفة : ويحك ما يبكيك ؟ أوظننت أنى جئت لتقريعك

وتأنيبك ؟ لا والله يا جارى الحبيب ما جئت إلا لأراك وأطمئن عليك ، فقد افتقدت صوتك العذب الذى طالما آنسنى فى ظلام الليل .

عاصم : (**يمضى فى بكائه**) تسأل عنى يا سيدى وتحضر لرؤيتى ، وأنت تعلم أننى أعصى الله فى كل ليلة .

أبو حنيفة : هذا حق الجوار يا عاصم ، والله وحده هو الذى يدين العباد بذنبهم فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .

عاصم : والله يا سيدى لا أدرى كيف أشكرك ، ولكن والله لأتوبن توبة نصوحا تجعلنى أهلا لجوارك .

أبو حنيفة : بوركت يا عاصم . الآن قلدتنى منة لن أنساها لك ما حييت .

عاصم : ماذا تقول يا سيدى ؟ أنت صاحب المنة والفضل على .

أبو حنيفة : رويدك يا ابن عبد العزيز . لقد كنتُ أدعو الله كل ليلة أن يهديك ويتوب عليك ، فلما افتقدت صوتك وعلمت أنك فى الحبس ، أشفقت أن يكون فى سوء عملى مالا علم لى به ما منع من قبول دعائى ، فكيف لا تكون صاحب المنة على وقد بشرتنى الآن بأن الله قد استجاب دعائى وأنه سبحانه غير ساخط على ؟

عاصم : (**باكيا**) يا أبا حنيفة يا إمام المسلمين ، هل لك أن تسدى إلى جميلا بعد .

أبو حنيفة : اقترح يا عاصم .

عاصم : أرشدنى إلى أفضل عمل عند الله لأقوم به .

أبو حنيفة : وإن شق عليك ؟

عاصم : وإن شق على .

أبو حنيفة : الجهاد فى سبيل الله يا عاصم .

عاصم : إذن والله لأجاهدن فى سبيل الله حتى ألقى الشهادة .

أبو حنيفة : أنت ذو أهل وعيال يا عاصم ، ففى هؤلاء فجاهد .

عاصم : إنى أوثر الجهاد فى سبيل الله .

أبو حنيفة : الجهاد فى سبيل أهلك وأولادك جهاد فى سبيل الله .

الأمير : اذهب يا عاصم فأنت مطلق السراح .

عاصم : جزاك الله خيرا يا سيدى الأمير .

الأمير : بل جزيت أنت الخير عنى إذ أتحت لى شرف الزيارة من أبى حنيفة . اسمع يا غلام .

الشرطى : نعم يا سيدى الأمير .

الأمير : مُر لعاصم بن عبد العزيز بألف درهم ، وليحصوا كل من أخذ معه تلك الليلة إلى يومنا هذا فليطلقوهم من الحبس أجمعين .

أبو حنيفة : شكرا لله ، فضلك يا عيسى بن موسى . قد أبيت إلا أن تفضل علينا .

الأمير : والله يا أبا حنيفة لهذا أسعد يوم فى حياتى . والله لو بعتُ به عمرى لكنتُ الرابح ! .

(ستار)

إمام عظيم

(المنظر : مجلس الخليفة المتوكل . وعنده خواص أصحابه .)

(يدخل الحاجب يعقوب قوصرة)

المتوكل : ما وراءك يا يعقوب ؟

يعقوب : هذا أحمد بن أبي دؤاد يا أمير المؤمنين ، قد جاءوا به محمولا إليك كما أمرت .

المتوكل : فليدخلوا بالمخذول هنا .

يعقوب : سمعا يا أمير المؤمنين .

(يخرج يعقوب ثم يعود بابن أبي دؤاد ، يحمله اثنان من الشرطة ، فتتوجه الأبصار إليه)

المتوكل : ضعوه على الأرض وأسندوه إلى ذلك الجدار .

(يوضع ابن أبي دؤاد على الأرض ، ويسند إلى جدار في أحد الأركان ، وهو مريض بالفالج لا يستطيع الحركة)

ابن أبي دؤاد : السلام عليكم يا أمير المؤمنين !

المتوكل : وعلى غيرك السلام . هيه يا ابن أبي دؤاد ، هل لك أن

تحدثنا عما فعلتموه بأحمد بن حنبل ؟

ابن أبى دؤاد : ما إخال أمير المؤمنين يجهل ذلك .

المتوكل : أحقا جيء له بالجلادين فضربوه حتى غشى عليه ؟

ابن أبى دؤاد : نعم يا أمير المؤمنين .

المتوكل : هل تعتقد أنه كان يستحق كل هذا العذاب ؟

ابن أبى دؤاد : ... ؟

المتوكل : ماذا كانت جريرته ؟

ابن أبى دؤاد : أبى يا أمير المؤمنين أن يقول : إن القرآن مخلوق .

المتوكل : أكنت ترى أنه يكيد للدين ويبغى به شرا ؟

ابن أبى دؤاد : لا يا أمير المؤمنين ، ولكنه أخطأ .

المتوكل : وكيف علمت أنه أخطأ ؟ أأنت أعلم بالدين وأفقه للسنة من هذا الإمام الكبير ؟

ابن أبى دؤاد : يا أمير المؤمنين ما كنت أنا وحدى فى هذه السبيل . لقد كنت مع أبيك المعتصم أمير المؤمنين فى ذلك .

المتوكل : أفكان المعتصم أفقه وأعلم من أحمد بن حنبل ؟

ابن أبى دؤاد : وكان على ذلك أيضا عمك المأمون أمير المؤمنين .

المتوكل : ويلك ، ألأن المأمون قد شدا شيئا من فلسفة يونان ، يكون أعلم بكتاب الله وسنة رسوله من ابن حنبل ؟

ابن أبى دؤاد : كانت سياسة الدولة يا أمير المؤمنين تقتضى ذلك .

المتوكل : أى دولة تعنى ؟ دولتنا أم دولة خصومنا العلويين ؟

ابن أبي دؤاد : بل دولتكم يا آل عباس .

المتوكل : أفلم يكن المأمون من الساعين فى هدمها ؟ ألم يرد أن ينزعها من أيدينا ليجعلها لآل أبى طالب ؟

ابن أبي دؤاد : إنك تعلم يا أمير المؤمنين ألا يد لى فى تلك السياسة .

المتوكل : فإنى لن أعاقبك عليها ، ولكنى سأعاقبك على ما ظلمت هذا الإمام الجليل وعرضته للعذاب .. طوال حكم المأمون عمى والمعتصم أبى والواثق أخى .

ابن أبي دؤاد : إنه كان يتشيع لآل على يا أمير المؤمنين .

المتوكل : قد فتشوا داره فلم يجدوا فيها أحدا من أعدائنا العلويين ، كما ادعيت عليه زورا منك وبهتانا .

ابن أبي دؤاد : لعله كان قد سربه وهربه يا أمير المؤمنين .

المتوكل : كذبت أيها المجرم الأثيم . والله لأستصفين ما بقى من أموالك حتى لا يبقى عندك دانق واحد .

ابن أبي دؤاد : حنانيك يا أمير المؤمنين ، أبق شيئا لأهلى وأولادى . أما كفى ما أخذت من مالى حتى أصابنى هذا الفالج عافاك الله .

المتوكل : تلك عقوبة الله ، وبقى أن تذوق عقوبتى .

ابن أبي دؤاد : يا أمير المؤمنين ليس من العدل أن تعاقبنى وحدى فيما حل بابن حنبل ؟

المتوكل : ويلك أأنبش قبور شركائك : المأمون والمعتة

والواثق ؟ أهذا ما تريد مني يا لكع ؟

ابن أبي دؤاد : معاذ الله يا أمير المؤمنين ، ولكنى أطمع فى عفوك أنت كما أطمع لهم فى عفو الله وغفرانه . (**يدخل يعقوب**) .

يعقوب : يا أمير المؤمنين ، هذا أحمد بن حنبل قد وصل .

المتوكل : أهلا به ، فليدخل .

(**يخرج يعقوب**)

المتوكل : أتقبل يا هذا أن أحكم أحمد بن حنبل فى أمرك ليقضى عليك بما يشاء ؟

ابن أبي دؤاد : يا أمير المؤمنين أنت أرحم وأعدل من أن تكل أمرى إلى خصمى !

المتوكل : ألا تريد أن تحتكم إليه ؟

ابن أبي دؤاد : إليك وحدك أحتكم يا أمير المؤمنين .

المتوكل : فابق حيث أنت ولا تنطق بكلمة حتى يؤذن لك .

(**يدخل الإمام أحمد بن حنبل فيقوم له الخليفة وجلساؤه إعظاما ، ثم يجلسه المتوكل إلى جانبه**)

المتوكل : مرحبا بك يا أبا عبد الله . أنت عندنا على الرحب والسعة .

أحمد : أصلحك الله يا أمير المؤمنين . هأنذا قد حضرت اليوم إلى قصرك امتثالا لأمرك . فماذا يريد أمير المؤمنين منى ؟

المتوكل : عندى لك عتب يا أبا عبد الله ، أريد أن أسمعك إياه .

أحمد : فيما العتب يا أمير المؤمنين ؟

المتوكل : أنت تكره أن تغشى مجلسى يا أبا عبد الله !

أحمد : إنما أكره أن أجيئك لغير حاجة يا أمير المؤمنين حتى لا أشغلك عن ذوى الحاجات من رعيتك .

المتوكل : بل كرهت الرحلة إلينا من بغداد .

أحمد : إنما أشفقت من مشقة الرحلة يا أمير المؤمنين . فإنى كما ترى شيخ هرم .

المتوكل : قبحا لهم ، لقد بلغونى أنك تكره لقائى وتتنصل . وإلا لأعفيتك من هذه المشقة .

أحمد : هذا يا أمير المؤمنين مثل الذى بلغك عن دارى ، أنى أؤوى فيها أحد أعدائك .

المتوكل : أجل .. سامحنى يا أبا عبد الله ، إذ أمرت بتفتيش دارك .

أحمد : قد سامحتك يا أمير المؤمنين من قبل .

المتوكل : والهدية التى أرسلتها إليك بلغنى أنك استنكفت منها ففرقتها على الفقراء والمساكين .

أحمد : يا أمير المؤمنين لقد وجدت هؤلاء أحوج منى إليها فتصدقت بها عليهم ، وما قصدت — والله — أن أغضبك .

المتوكل : فقد أغضبني ذلك يا أبا عبد الله منك .

أحمد : (ممازحا) ماذا تركت لصالح ابني يا أمير المؤمنين ؟ لقد كان له عذره حين غضب .. أما أنت فلا عذر لك !

المتوكل : (يبتسم ضاحكا) صدقت يا أبا عبد الله ، والله لا أسمع فيك مقالة واش بعد اليوم .

أحمد : حياك الله يا أمير المؤمنين وبياك .

المتوكل : إنك سامحتني فيما كان مني فى حقك ، فهل لك أن تسامح المعتصم أبي وتجعله فى حل ؟

أحمد : قد فعلت يا أمير المؤمنين .

المتوكل : (فرحا) أحقا يا أبا عبد الله ما بقى فى قلبك من شيء عليه ؟

أحمد : ولا على أحد ممن آذاني . قد جعلتهم جميعا فى حل .

المتوكل : حتى هذا المجرم اللعين ! (**يشير إلى ابن أبي دؤاد**) .

أحمد : (**ينظر إلى حيث أشار المتوكل**) ومن يكون هذا يا أمير المؤمنين :

المتوكل : ألا تذكره ؟ هذا عدوك أحمد بن أبي دؤاد !

أحمد : ما هو لي بعدو يا أمير المؤمنين . لقد سامحته وعفوت عنه .

المتوكل : يعقوب !

يعقوب : لبيك يا أمير المؤمنين .

المتوكل : احملوا هذا المخدول إلى أهله !

ابن أبي دؤاد : (**يحمله الشرطيان ليخرجا به**) يا أمير المؤمنين حكم أبا عبد الله في أمرى .

المتوكل : هيهات . قد رفضت ذلك من قبل ، فليس لك غير حكمى أنا .

ابن أبي دؤاد : حنانيك يا أمير المؤمنين ، اجعل حكمى إليه .

(يخرجانه وهو يصيح ويستغيث)

أحمد : ما خطبه يا أمير المؤمنين ؟ .. ما خطب ابن أبي دؤاد ؟

المتوكل : كنت أردت أن أنتقم لك منه ، ولكنك عفوت فأمرتهم أن يعيدوه إلى أهله .

أحمد : أكرمك الله يا أمير المؤمنين ، إن الله تبارك وتعالى يقول : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » .

المتوكل : هذا الذى عذبك يا أبا عبد الله واضطهدك . هذا الذى دفع أبي وعمى إلى عذابك !

أحمد : (**يرفع يديه مبتهلا**) اللهم اغفر لابن أبي دؤاد . اللهم تب عليه .

المتوكل : وتدعو له يا أبا عبد الله ؟ تدعو للعصاة المجرمين ؟

أحمد : (**ماضيا فى دعائه**) اللهم إن قبلت من عصاة أمة محمد ﷺ فداء ، فاجعلنى لهم فداء !

(يستولى على الحاضرين خشوع عميق ، وتنسدى

عيونهم بالدمع ، ويسود بينهم الصمت برهة)

المتوكل : **(والدمع فى عينيه)** أبا عبد الله لا غنى لناعسن صحبتك . أفلا تقيم عندنا فى « سر من رأى » إلى ما شاء الله ؟

أحمد : لو أعفيتنى يا أمير المؤمنين ، وأذنت لى فى العودة إلى دارى ببغداد كنت لك من الشاكرين .

المتوكل : أترغب عن جوارى يا أبا عبد الله ، أم تشكو من تقصير فى حقك ؟

أحمد : سأصدقك القول يا أمير المؤمنين . إنى لا أحب لك أن تكون أقسى على من المعتصم أبيك .

المتوكل : كيف يا أبا عبد الله ؟

أحمد : سامنى أبوك فتنة الدين أمس ، وأنت اليوم تسومنى فتنة الدنيا بما تغدق علىّ وعلى أهلى من عطاياك . وقد نجوت من الأولى يا أمير المؤمنين ، وأخشى ألا أنجو من الثانية .

المتوكل : قد فهمت قصدك يا أبا عبد الله ، ولك عندنا ما تحب .

أحمد : (فرحا) أبقاك الله يا أمير المؤمنين ، ووفقك لكل خير .

المتوكل : عظنى يا أبا عبد الله قبل أن ترحل عنى .. عظنى موعظة أحفظها عنك ما حييت .

أحمد : يا عبد الله .. السفر قريب ، والطريق طويل ، والزاد قليل !

المتوكل : (**يتمتم باكيا**) يا عبد الله .. السفر قريب ، والطريق طويل .. والزاد قليل !

(ستار »

الفهـــرس

صفحة

١ ـــ هكذا لقى الله عمر ٥

٢ ـــ البيت العتيق ١٦

٣ ـــ المشرك الأول ٣٠

٤ ـــ أصحاب الغار ٤٤

٥ ـــ الحائط القصير ٥٨

٦ ـــ جار أبي حنيفة ٧٠

٧ ـــ إمام عظيم ٨٥

مؤلفات الأستاذ على أحمد باكثير

(١) إخناتون ونفرتيتى
(٢) سلامة القس
(٣) وا إسلاماه
(٤) قصر الهودج
(٥) الفرعون الموعود
(٦) شيلوك الجديد
(٧) عودة الفردوس
(٨) روميو وجولييت
(٩) سر الحاكم بأمر الله
(١٠) ليلة النهر
(١١) السلسله والغفران
(١٢) الثائر الأحمر
(١٣) الدكتور حازم
(١٤) أبو دلامة
(١٥) مسمار جحا
(١٦) مسرح السياسة
(١٧) ماساْة أوديب
(١٨) سر شهر زاد
(١٩) سيرة شجاع
(٢٠) شعب الله المختار
(٢١) إمبراطورية فى المزاد
(٢٢) الدنيا فوضى
(٢٣) أوزوريس
(٢٤) دار ابن لقمان
(٢٥) قطط وفيران
(٢٦) إله إسرائيل
(٢٧) هاروت وماروت
(٢٨) التوراة الضائعة
(٢٩) جلفدان هانم
(٣٠) فى ذكرى محمد ﷺ
(٣١) من فوق سبع سموات
(٣٢) الشيماء
(٣٣) إبراهيم باشا

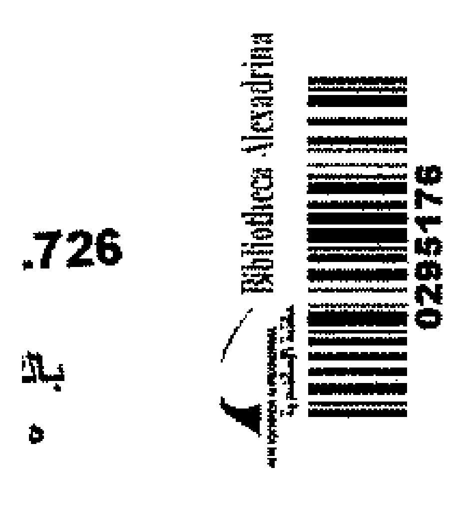
الملحمة الإسلامية الكبرى « عمر » :

(١) على أسوار دمشق
(٢) معركة الجسر
(٣) كسرى وقيصر
(٤) أبطال اليرموك
(٥) تراب من أرض فارس
(٦) رستم
(٧) أبطال القادسية
(٨) مقاليد بيت المقدس
(٩) صلاة فى الإيوان
(١٠) مكيدة من هرقل
(١١) عمر وخالد
(١٢) سر المقوقس
(١٣) عام الرمادة
(١٤) حديث الهرمزان
(١٥) شطا وأرمانوسة
(١٦) الولاة والرعية
(١٧) فتح الفتوح
(١٨) القوى الأمين
(١٩) غروب الشمس

رقم الإيداع ٣٣٦٨ / ٨١
الترقيم الدولى ٩ ــ ٤٥ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٢٠٠ قرش